جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

الأبعاد الفكرية والفنية
في شعر خليل مطران الوجداني
(حكاية عاشقين أنموذجا)

الدكتور
محمد الصاوي محمد الصاوي
الأستاذ المساعد في كلية العلوم والآداب بالقريات
جامعة الجوف - المملكة العربية السعودية
مدرس الأدب والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
جامعة الأزهر - فرع كفر الشيخ

العدد الرابع والعشرون
للعام ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م
الجزء الأول
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٠م
الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الأبعاد الفكرية والفنية في شعر خليل مطران الوجداني
(حكاية عاشقين أنموذجا)

محمد الصاوي محمد الصاوي
الأستاذ المساعد في كلية العلوم والآداب بالقريات ـ جامعة الجوف ـ المملكة العربية السعودية
مدرس الأدب والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ـ جامعة الأزهر ـ فرع كفر الشيخ
البريد الإلكتروني: mas2013d@yahoo.com

الملخص

من أرقى التجارب الوجدانية في شعر خليل مطران هي تلك القصائد والمقطوعات والنتف التي جمعها تحت عنوان (حكاية عاشقين) ، وقد سلطت دراستنا الضوء في شطرها الأول على الأبعاد الفكرية في هذه المجموعة الشعرية التي تمثلت في تصوير لقاءات العاشقين ، وما يتعلق بها ، ورسم جمال المحبوبة ، وإبراز ملامح المعاناة من تباريح الهوى ، والشكوى من نأي الحبيبة وصدها ، ووشايات الوشاة ومكائدهم ، ومكابدة حرقة الفراق ولوعته في حياة المحبوبة ، ثم اجترار الذكريات وشجوها ، والوفاء للحبيبة بعد وفاتها .

وفي شطرها الآخر سلطت هذه الدراسة الضوء على الأبعاد الفنية في شعر (حكاية عاشقين) التي تمثلت في التعبير الشعري من خلال دراسة الألفاظ ثم الأساليب وتنوعها بين : الخبر والإنشاء ، ثم ظواهرها كالحوار ، والتكرار ، وتوظيف التراث ، والحكمة ، ثم في الصورة الشعرية من خلال الحديث عن الصورة الجزئية والصورة الكلية ، ثم جاء الإيقاع الموسيقي داخليا وخارجيا ختاما لهذه الأبعاد .

كما كشفت الدراسة أيضا عن نجاح مطران في توظيف كل طاقات اللغة وإمكاناتها من خلال موهبته الشعرية ؛ لتجسيد تلك التجربة الوجدانية بكل قسماتها ، وأنه عبر عن عاطفته فيها أصدق تعبير ، وصور فيها مشاعره أوضح وأروع تصوير .

كلمات مفتاحية : شعر مطران ، الأبعاد الفكرية ، حكاية عاشقين .

The intellectual and artistic dimensions in the poetry of Khalil Mutran Al-Wajdani (The story of two lovers as a model)

Mohamed El-Sawy Mohamed El-Sawy
Assistant Professor at the College of Arts and Sciences in Qurayyat - Al-Jouf University - Kingdom of Saudi Arabia Lecturer of literature and criticism at the Faculty of Islamic and Arab Studies for Girls - Al-Azhar University - Kafr El-Sheikh branch
Email: mas2013d@yahoo.com

Abstract

Among the finest emotional experiences in Khalil Mutran's poems are those poems, pieces, and pluck which he collected under the title (The Story of Two Lovers), and our study shed light in its first part on the intellectual dimensions in this poetic group that was represented in photographing the meetings of lovers, and what is related to it, and drawing the beloved beauty , And highlight the features of suffering from permits of passion, and complain about the love and repulsion of the beloved, and the accusations of the infantry and their machinations, and the struggle of the separation and his passion in the life of the beloved, and then ruminate the memories and their complaints, and fulfill the love after her death.

In its other part, this study sheds light on the artistic dimensions in the poetry of "The Story of Two Lovers", which was represented in poetic expression through the study of words, then methods, and its diversity between: news and creation, then its phenomena such as dialogue, repetition, employing heritage, wisdom, and then in the poetic image through Talking about the partial picture and the overall picture, then the musical rhythm came internally and externally to conclude these dimensions.

The study also revealed that Bishop succeeded in employing all the energies and capabilities of the language through his poetic talent, to embody that emotional experience in all its divisions, and that he expressed his affection in it the most sincere expression, and in which he presented his feelings with the clearest and most wonderful depiction.

Keywords: Bishop's poetry, intellectual dimensions, the story of two lovers.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين ، سيدنا محمد النبي الأمي الأمين ، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد

فإن الشعر أساسه التعبير عن العاطفة والشعور ، وتصوير ما يعتمل بالذات والوجدان ، والشعر العربي على مر العصور قد غلبت عليه النزعة الذاتية والوجدانية ، وفي مقدمتها تجارب الشعراء العاطفية ، ومن أبرز شعراء الذات والوجدان في عصرنا الحديث يأتي (خليل مطران) الذي وضعه النقاد على رأس المدرسة الرومانسية التي جعلت في مقدمة موضوعاتها الشعرية رصد التجارب الوجدانية التي تربط أصحابها بالمرأة من خلال عاطفة الحب الإنسانية .

ولعل أهم التجارب الوجدانية التي تمثل هذا اللون في شعر خليل مطران هي تلك القصائد والمقطوعات والنتف التي جمعها تحت عنوان (حكاية عاشقين) التي تدخل في زمرة بقية شعره الذي قال عنه في مقدمة ديوانه إنه ما هو " إلا مدامع ذرفتها ، وزفرات صعدتها ، وقطع من الحياة بددتها ، ثم نظمتها فتوهمت أنني استعدتها " [١] .

---

(١) ديوان الخليل – نظم خليل مطران – ج ١ ، ص ١٠ ، الطبعة الثانية ١٩٤٩ م – مطبعة دار الهلال ــ مصر .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ولما يمثله شعر (حكاية عاشقين) من قيمة بين شعر مطران الوجداني ، وعدم وجود دراسة مستقلة ــ فيما أعلم ــ تقوم على سبر أغواره الفكرية والفنية على الرغم من إشارة كثير من النقاد والباحثين إلى هذه الحكاية عند تعرضهم لـ (خليل مطران) مثل : طاهر الطناحي في كتابه (حياة مطران) ، ومنير عشقوتي في كتابه (خليل مطران شاعر القطرين) ، وجمال الدين الرمادي في كتابه (خليل مطران شاعر الأقطار العربية) ، وأحمد درويش في كتابه (خليل مطران شاعر الذات والوجدان) ، وميشال جحا في كتابه (خليل مطران باكورة التجديد في الشعر العربي الحديث) ، ومن ثم فقد وقع اختياري على دراسته تحت عنوان : (الأبعاد الفكرية والفنية في شعر خليل مطران الوجداني ــ حكاية عاشقين أنموذجا).

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يخرج في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة ، ففي المقدمة تحدثت عن أهمية الموضوع ، ودوافع اختياره ، والخطة التي سرت عليها في تناوله .

وفي التمهيد تناولت الوجدان وروافده في شعر خليل مطران ، وجاء المبحث الأول بعنوان : الأبعاد الفكرية في (حكاية عاشقين) متضمنا عدة أبعاد هي :

أ ــ تصوير لقاءات العاشقين ، وما يتعلق بها .

ب ــ تصوير جمال المحبوبة .

ج ــ رسم ملامح المعاناة من تباريح الهوى، والشكوى من نأي الحبيبة وصدها.

د ــ الشكوى من الوشاة ، ومكابدة حرقة الفراق ولوعته .

هـ ــ اجترار الذكريات وشجوها ، والوفاء للحبيبة .

ثم جاء المبحث الثاني بعنوان : الأبعاد الفنية في (حكاية عاشقين)، وقد تناولت فيه :

التعبير الشعري من خلال الألفاظ ثم الأساليب وتنوعها بين : الخبر والإنشاء ، ثم ظواهرها كالحوار ، والتكرار ، وتوظيف التراث ، والحكمة ، ثم سلطت الضوء على الصورة الشعرية من خلال الصورة الجزئية ثم الصورة الكلية ، وختمت هذا المبحث بالحديث عن الإيقاع الموسيقي داخليا وخارجيا ، ثم جاءت الخاتمة وفيها أهم نتائج الدراسة مردوفة بمصادر البحث ومراجعه .

وأخيراً أسال المولى – سبحانه – أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يجزيني ومن قام عليه – كتابة وقراءة وتقويما – خير الجزاء ، وأن يجعله في ميزان حسناتنا ، إنه بالإجابة جدير ، وعلى ذلك قدير ، وهو الموفق والهادي إلى سواء السبيل ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، وصل اللهم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

تمهيد

الوجدان وروافده في شعر خليل مطران

إذا كان الشعر الغنائي مرتبطا بذات الشاعر ووجدانه ــ لدرجة جعلت بعض النقاد والدارسين يسمونه ــ تصريحا تارة وتلميحا أخرى ــ بـ" الشعر الذاتي" ، و"الشعر الوجداني" (١) ــ فإن الاتجاه الوجداني أو الذاتي يعد أبرز اتجاهاته كافة ؛ حيث يعبر فيه الشعراء عن تجاربهم الخاصة ، ويتغنون بعواطفهم الداخلية ، ويرصدون من خلاله مشاعرهم الذاتية ، فهم يهتمون ــ في هذا الاتجاه الشعرى ــ بذواتهم ، وما يعتمل بها ، ويؤثر فيها، فيصورون " آمالها وآلامها ، وهواتفها وأحلامها ، وأتراحها وأفراحها، وغضبها ورضاها ، وإقبالها وإدبارها ، وهزلها وجدها ، ولينها وقسوتها ، ولذتها وحرمانها ، وصحتها ومرضها ، وشقاوتها وسعادتها " (٢) .

ولا مشاحة في أن الشعر الوجداني تتنوع آفاقه بين الألم والحزن ، والتشاؤم والارتماء في أحضان الطبيعة ، والشكوى ... غير أن اللون الغزلي يمثل قمة شعر الوجدان ؛ لأن ينبوعه إنما هو عاطفة الحب الإنسانية

---

(١) ينظر: النقد الأدبي الحديث ــ د/ محمد غنيمي هلال، ص١٦٩ ، ــ مطبعة نهضة مصر ــ القاهرة ــ الطبعة السادسة ٢٠٠٥ م ، وكذلك : الشعر بين الجمود والتطور أ/ العوضي الوكيل ــ ص١٠١، ١٠٢ ، سلسلة المكتبة الثقافية رقم ١١٤، مطابع دار القلم ــ القاهرة ــ أول أغسطس ١٩٦٤م ، وكذلك: في محيط النقد الأدبي ــ د/إبراهيم على أبو الخشب ــ ص١٣٩ ــ مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٥م ، وينظر أيضا: الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ــ د/ عبدالقادر القط ــ ص٩، ١٢، ١٤، ٢٦، مكتبة الشباب ــ القاهرة ١٩٨٨م .

(٢) في محيط النقد الأدبي ــ ص١٣٩ .

" التي لا تقتصر على طائفة من الناس دون أخرى ، أو تقف عند زمن دون غيره ، أو بيئة بعينها دون سواها ... وتجد طريقها إلى قلب العبقري كما تصل إلى قلب الرجل العادي ، ... فالحياة كلها ميدان لعاطفة الحب ، والناس كلهم من فرسانها " . (١)

ومن ثم فهذه العاطفة تلهب قلوب الشعراء العشاق ، وتسيطر على أحاسيسهم ومشاعرهم بل وعقولهم أيضا ، فتحدوهم إلى التعبير عن تجربتهم الذاتية مع المرأة ، وتصوير ما ينتابهم فيها من لهفة وشوق ، ورضا وإعجاب ، ودلال وهيام ، وصد وهجر ، وقرب وبعد ، وشكوى وعتاب ، وعطاء وحرمان في ألفاظ عذبة ، وأسلوب سهل ، ومعان قريبة واضحة مما يطرب النفوس ، ويأسر الألباب .

كما أن هذه العاطفة قد تبدو ــ أحيانا ــ عند بعض الشعراء " وكأنها تجربة روحية ترتبط بمعاني الطهارة والعفة والصمود أمام الشهوات، ويسمو الشاعر (منهم) فيها بخياله إلى عالم نوراني من الأحلام ... والأوهام ، متخذا من حبه مجرد إلهام لموهبته ، وحافزا لوجدانه ؛ ليرقى إلى ما يستطيع من رحاب الروح والفن " . (٢)

ومن ثم فإن فالغزل لون شعرى " رقيق لين ، طريف يتناول عاطفة الحب الإنسانية وما يتصل بها " (٣)، وبوجه عام فإن الغزل " أدب وجداني

---

(١) الغزل في العصر الجاهلي ــ د/ أحمد محمد الحوفي ــ ص١٢٧ بتصرف . الطبعة الثالثة ١٣٩٢هـ ــ ١٩٧٣م، دار نهضة مصر ــ الفجالة ــ القاهرة .

(٢) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ــ د/ عبدالقادر القط ــ ص٢٨٩ .

(٣) الأسلوب ــ أحمد الشايب ــ ص٨٣ بتصرف ــ الطبعة السابعة ١٣٩٦هـ ــ ١٩٧٦م ــ مكتبة النهضة المصرية .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

رفيع يعبر عما يعتلج في النفس من مشاعر وأحاسيس تزجيها عاطفة الحب ... ومن هنا يتضح لنا مدى ما بين الحب والغزل من وشائج قوية ؛ لأن الحب عاطفة ، والغزل إحدى الوسائل المعبرة عن هذه العاطفة " [١]، ومن ثم فالشاعر يتحدث فيه عن حبه وغرامه ، فيخاطب الحبيبة حينا ، ويتحدث عنها حينا آخر ، يصفها حينا ، ويصف ديارها وما يتصل بها حينا آخر ، يشرح الهوى حينا ، ويشرح فعل الهوى به حينا آخر . [٢]

وعلى ذلك ، فالشاعر في هذا اللون الوجداني : " إما أن يصف المرأة وما يتعلق بها معجبا متشببا ، وإما أن يصف نفسه شاكيا حرقة الجوى وتباريح الهجر ، وآلام الدلال والحرمان ، وإما أن يصف نفسه والمرأة معا وما قد يحدث بينهما عف اللسان أو مسفا مرذولا " . [٣]

والشاعر الكبير خليل مطران (١٢٨٨- ١٣٦٨هـ / ١٨٧١ – ١٩٤٩م) يعد رائد الرومانسية والوجدان في الشعر العربي في العصر الحديث ، وقد كان لعاطفته الرقيقة ، وحسه المرهف ، ونشأته في أحضان طبيعة لبنان الساحرة ، ومعرفته عدة لغات هي العربية والفرنسية والإنجليزية والتركية والإسبانية ــ كان لهذه العوامل أثر كبير في تكوين ثقافة مطران ، وميله نحو التجديد الشعري ، على أن أقوى قراءاته كانت

(١) فن الغزل في الشعر المملوكي دراسة تحليلية نقدية ــ د/ حسن عبدالرحمن سليم ــ ص٢٧، الطبعة الأولى (١٤٢٧هـ ــ ٢٠٠٧م) ــ مكتبة الآداب ــ القاهرة. وينظر: الغزل في العصر الجاهلي ــ ص١٢٦.

(٢) ينظر: أسس النقد الأدبي عند العرب ــ د/ أحمد أحمد بدوى ــ ص١٣٩ ــ طبعة دار نهضة مصر ١٩٧٩م .

(٣) الأسلوب ــ أحمد الشايب ــ ص٨٣ .

في الفرنسية والعربية ، فقرأ في الأولى آثار كورنيل وراسين وموليير وفيكتور هوجو ولا مارتين ، كما قرأ ما تُرجم إليها من آثار شكسبير وملتون وبيرون وشيللى وسوينبون وورد زورث وكيتس من أعلام الأدب الإنجليزي ، كما ترجم عن الفرنسية إلى العربية ما ترجم من شكسبير وكورنيل وراسين ، أما قراءته في العربية فكثيرة غير أن أقواها لابن الرومي والبحتري الذى عدّه في الطبقة الأولى من شعراء العربية بنسجه الشعرى وصناعته ، أما المتنبي فيفضله الخليل على جميع شعراء العرب ببعض شعره الذى بلغ الذروة ، كما تأثر الخليل برثاء الشنفرى ــ في لاميته المشهورة- لزوجته ، وبحكم المعرى والمتنبي التي ذكر أنه كثيراً ما كان يستشهد بها في كلامه. (١)

ومن ثم فلا غرو في أن يكون لعاطفة الحب الإنسانية التي تجمع الرجل بالمرأة – بخاصة – تمثيل واضح في شعر مطران الوجداني ، سواء أصور فيه تلك العاطفة من خلال أحداث واقعية عاصرها وشاهدها في المجتمع ، أو تخيلها مع إمكان وجودها فيه كما في قصائده : "وفاء" (٢)، و" العقاب " (٣)، و"الوردة والزنبقة" (٤)، و"فنجان قهوة" (٥) و "غرام

(١) ينظر : شعراء معاصرون ، د/ إسماعيل أدهم ــ المؤلفات الكاملة – ج٢ ص ٣٣٧-٣٣٨، تحرير وتقديم د/ أحمد إبراهيم الهوارى – دار المعارف – القاهرة ١٩٨٤م. وينظر أيضا : الأدب العربي الحديث ، الرؤية والتشكيل ــ د / حسين علي محمد ، ص ٦٩ ــ ٧١ ، الطبعة السابعة ٢٠٠٧م ــ ١٤٢٨هـ ــ مكتبة الرشد ــ الرياض .

(٢) ديوان الخليل ، ج ١ ، ص ١٠٥ – ١١٠ .

(٣) السابق ، ص ١١٢ – ١١٧ .

(٤) السابق ، ص ١٣٤ – ١٣٧ .

(٥) السابق ، ص ١٤٨ – ١٥٤ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

طفلين"[١]، و" الطفلان " [٢]، أم عبر فيه عن تجاربه الوجدانية الذاتية التي عاشها كما في قصائده : " بدر وبدر " [٣]، و" مشاكاة بيني وبين النجم "[٤]، و"المساء "[٥]، و" هل تذكرين " [٦]، و" هو أنتِ " [٧]، و" أنتِ سعدي وشقوتي"[٨]، و"حكاية عاشقين" [٩] محور هذه الدراسة .

ولعل إبداع مطران في هذا اللون الوجداني مرده إلى الروافد الآتية :

١ــ نشأته في البيئة اللبنانية الغنية بمظاهر الجمال من جبال شاهقة، وقمم شامخة ، وقلاع حصينة، وخضرة دائمة، وأشجار متطاولة ، وجو عبق ، وأزهار ناضرة، وثمار ناضجة ، وغابات متكاثفة ، مما كان له أكبر الأثر في رهافة حسه، وتغذية عواطفه بكثير من الروافد الوجدانية . [١٠]

٢ ــ الجو الرومانسي المفعم بعاطفة الحب ، والذى عاش فيه منذ نعومة أظفاره ، ثم تجربته العاطفية التي عاشها في شبابه ، وعاش على

(١) السابق ، ص ٢٤٥ – ٢٤٨ .
(٢) السابق ، ج ٢ ، ص ٦١ – ٦٧ .
(٣) السابق ، ج ١ ، ص ٢٣ – ٢٤ .
(٤) السابق ، ص ٢٩ – ٣٠ .
(٥) السابق ، ص ١٤٤ – ١٤٦ .
(٦) السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٥ – ١٣٩ .
(٧)السابق ، ص ٣٢٦ .
(٨) ديوان الخليل ، ج ٣ ، ص ١٤٠ .
(٩) السابق ، ج ١ ، ص ١٨٤ – ٢٢٢ .
(١٠) ينظر : خليل مطران ، محمد عطا ، ص١٤ ــ سلسلة نوابغ الفكر العربي –رقم ٢٥– الطبعة الثانية ١٩٦٩م ، دار المعارف – مصر.

ذكراها طيلة حياته ، والتي نظمها بيراعه تحت عنوان " حكاية عاشـــقين" ، والتي هي محور هذه الدراسة .

٣ ــ كثرة مشاهداته الرومانسية التي تدور حول عاطفة الحـــب فـــي واقعه ، والتي نقلها إلينا في ثوب شعرى قشيب .

٤ ــ قدرته الفائقة على إطلاق العنان لخياله المبتكر لقصص وجدانية قائمة على عاطفة الحب ، وتحاكي في الوقت ذاته ما يمكـــن وجـــوده فـــي المجتمع .

٥ ــ فضلا عن ثقافته الواسعة التي أتاحت له الاطلاع على مـــا كتبـــه كبار أدباء الرومانتيكية في أوربا من أمثال : روسو ، وشيللي ، وورد زورث ، وبخاصة في تلك الفترة التي قضاها بفرنسا ، فضـــلا عـــن ثقافتـــه العربيـــة الأصيلة ، مما جعل النزعة الوجدانية غالبة على نتاجه الشعري ، على نحو ما سلف بيانه .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المبحث الأول

الأبعاد الفكرية في (حكاية عاشقين) [١]

سئل مطران ذات مرة عن امرأة في حياته فقال لسائله : إن القصة طويلة جداً ولن أقصها عليك ، ولكن ثق أنه كانت هناك امرأة في حياتي ، وأنها لا تزال حتى اليوم ، وستبقى ما بقيت فسأله السائل : وهل تغنيت بها؟ فأجاب : كثيرا وهاك آخر ما قلته فيها : ــ بحر الطويل ــ

فشاب بنو ليلى وشاب بنو ابنها وحرقة ليلى في الفؤاد كما هيا [٢]

شاء الله أن يقاسى مطران لواعج الحب ، وأن يتذوق آلام العشق والهوى مذ كان طفلا ، يظهر ذلك من خلال شعره الذى ذكر فيه حبه لقريبة له أسماها "هندا" ، عاش وإياها عمر الطفولة وربيع الشباب في بعلبك ، إذ تحدث عن ذكريات جميلة في جوار الهياكل وقد نبتت زهرة حب في قلبه، فراح يلهو مع الحبيبة الصغيرة كفراش الرياض الذى يتسابق في مرح ، فيلتقيان تارة ويفترقان أخرى ، يختبئ كل منهما عن صاحبه ثم يحدوهما الشوق إلى سرعة الالتقاء فيتعانقان تعانقا حاراً ، كتعانق العائدين من السفر البعيد ، ويقطفان من ندى الشفاه قبلات طفولية عفيفة طاهرة ، يتحدث مطران عن ذلك في قصيدته " قلعة بعلبك تذكار صبا " فيقول :

ــ بحر الخفيف ــ

إيه آثار بعلبك سلام بعد طول النوى وبعد المزار

---

(١) ديوان الخليل – ج ١ ، ص ١٨٤ – ٢٢٢ .

(٢) ينظر : خليل مطران باكورة التجديد في الشعر العربي الحديث ، د/ميشال جحا ، ص٨٦ ــ ــ الطبعة الأولى – ١٤٠١هـ –١٩٨١م– دار المسيرة – بيروت – لبنان .

ذكـــريني طفـــولتي وأعيـــدي رســم عهــد عــن أعــيني متــواري
يـوم أمشـى علـى الطلـول السـواجي لا افـــتراراً فيهـــن إلا افـــتراري
نـزقـــا بينـــهن غـــراً لعوبـــا لاهيـــا عـــن تبصـــر و اعتبـــار
يـــوم أخلـــو بهنـد نلـهو ونزهـــو والهـــوى بيننـــا أليـــف مجـارى
كفـــراش الريـــاض إذ يتبـــارى مرحـــا مـــا لـــه مـــن اســـتقرار
نلتـــقى تـــارة ونشـــرد أخـــرى كـــل تـــرب في مخـــبإ متـــداري
وعـــداد اللحـــاظ نصـفو ونشـقى بجـــوار ففرقـــة فجـــوار
ليس في الـدهر محض سعد ولكـن تلـد الســعدَ محنـــة الأكـــدار
كلـــما نلـــتقى اعتنقـــنا كأنـــا جـــد سفـــر عـــادوا مـــن الأسفـــار
قبـــلات علـــى عـــفاف تحـــاكى قبـــلات الأنـــداء و الأسحـــار
واشـــتباك كضـــم غصـــن أخـــاه وكلثـــم النُّـــوار للنُّـــوّار
قلـــبنا طاهـــر وليـــس خلـــيا أطهـــر الحـــب في قـــلوب الصـــغار [1]

أما قصة الحب الحقيقة في حياة مطران ، فهي تلـك القصـة التـي عاشها في مصر في فترة نضج الشباب خلال ست سنوات من عمره ما بين سن الخامسة والعشرين والحادية والثلاثين في الفترة من سنة ١٨٩٧م إلى سنة ١٩٠٣م ، وهى القصة التي ظل يعيش ذكرياتها في الفترة الباقية مـن حياته ، وقد جسدها في مجموعته الشعرية "حكاية عاشقين" ، التـي تـأتي على رأس اللون الوجداني في شعره ، وإن كان (مطران) قد ذكـر ــ فـي ديباجتها أيضا- أنه تتبع وقائعها وكان فيها ترجمان ضـمير العاشق ولسان فؤاده ، وأنه أبدل اسم العاشق بضمير المتكلم ، وسمى المعشـوقة أسـماء

(١) ديوان الخليل – ج ١ ، ص ٩٨ – ٩٩ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

متعددة ؛ لتخفى حقيقتها ، وتنصرف عنها الظنون[١]، غير أن النقاد (*) أجمعوا على أنها قصة حبه التي عاشها في تلك الفترة السابقة ، والتي انتهت بفجيعته بموت حبيبته بداء عضال ، فظل على وفائه لها رافضا الزواج حتى لحق بها بعد نحو ستة وأربعين عاما .

وتشغل (حكاية العاشقين) نحو ثمان وثلاثين صفحة في الجزء الأول من ديوان الخليل ــ الذى طبع بمطبعة دار الهلال في مصر للمرة الثانية عام ١٩٤٩ م – وهى عبارة عن مجموعة من القصائد والمقطوعات والنتف الشعرية ، متنوعة الأوزان والقوافي ، نظمها (مطران) على هيئة فصلين : الفصل الأول بعنوان "سعادة الحب" ، وكان في حياة المعشوقة ، والفصل الثاني بعنوان "شقاء الحب" ، وكان بعد وفاتها ، وسوف نستعرض في السطور القادمة الأبعاد الفكرية في هذه التجربة الوجدانية على النحو التالي .

---

(١) السابق ، ص ١٨٤ .

(*) منهم ، طاهر الطناحي في كتابه : "حياة مطران" ، ص١٢٥-١٥٤ ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة – القاهرة – د. ت ، ود. سامى الدهان في مقال له بعنوان : عبقرية خليل مطران في الغزل والتصوير " والمنشور في كتاب "مهرجان خليل مطران" ، ص١٢٥ ، ١٢٦ ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية – مطابع دار القلم – القاهرة – يونيه (حزيران) ١٩٦٠م ، ، و د. جمال الدين الرمادي في كتابه " خليل مطران شاعر الأقطار العربية " ، ص٩٤-١٠١ ، الطبعة الثانية ١٩٧٢م – دار المعارف – مصر، ود. أحمد درويش في كتابه " خليل مطران شاعر الذات والوجدان " ، ص٦١ ،٦٢ ، الطبعة الأولى شوال ١٤٢١- يناير ٢٠٠١م – الدار المصرية اللبنانية ، ود. منير عشقوتي في كتابه " خليل مطران شاعر القطرين " ، ص ٣٩ -٤١ ، سلسلة شعراء لبنان ، رقم (٢) ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، دار المشرق ، بيروت – لبنان .

الفصل الأول : سعادة الحب

لا مراء في أن ثمة تلازما وارتباطا بين الأبعاد الفكريـــة ومضـــمون التجربة في أي عمل أدبى جيد ؛ إذ الأفكار مضمون عام لما يعتمل بوجـــدان الأديب تنتظم فيه المعاني (الجزئية) التي تُكوِّن هذه الأفكار، ومن ثم فالأفكار هي "مضمون كل عمل أدبى ومحتواه ، وهى المعاني التـــي تتـــرجم عنهـــا الصياغة الفنية ، وكما أن النغم الموسيقى يعبر عن لحن ، كذلك فإن الأداء التعبيري بالكلمة يعبر عن فكرة يريد الأديب الإفصاح عنها ، فالعبارة ما لـــم تؤد مضمونا تكون هذيانا أو تعمية يبرأ منها العمل الأدبي الجيد ".[١]

وبالنظر في الفصل الأول من هذه المجموعة الشعرية ، يمكن رصـــد الأبعاد الفكرية التالية :

أ ــ تصوير لقاءات العاشقين ، وما يتعلق بها .

ب ــ تصوير جمال المحبوبة .

ج ــ رسم ملامح المعاناة من تباريح الهوى ، والشكوى من نـــأي الحبيبـــة وصدها .

د ــ الشكوى من الوشاة ، ومكابدة حرقة الفراق ولوعته .

وفي السطور التالية ــ بمشيئة الله تعالى ــ نستعرض هـــذه الأبعـــاد الفكرية في فصل " سعادة الحب " .

****

(١) في ميزان النقد الأدبي ــ د/ طه أبو كريشة ــ ص٣٧ ــ مطبعة المليجي ــ الجيـــزة ـــ القاهرة ١٣٩٦هـــ ــ ١٩٧٦م .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أ ـ تصوير لقاءات العاشقين ، وما يتعلق بها :

يبدأ هذا الفصل ببداية حكاية العاشقين ، حيث اللقاء الأول عندما خرج (مطران) ذات يوم من ربيع سنة ١٨٩٧م ، للتنزه في حديقة الحيوان بالجيزة ، وهو يومئذ في رونق شبابه ، وفى أثناء تجواله رأى فتاة جميلة ــ عرف بعد ذلك أنها من أصل نمساوي ــ في نحو العشرين من عمرها جالسة على أريكة صغيرة تحت خميلة من الأشجار والزهور ، فأتت نحلة فلسعتها في خدها ، فتألمت وصرخت ، ورأى الشاعر الشاب هذا المشهد ، فطيَّر جسمه النحيل في الهواء ، يتابع النحلة في محاولة للثأر منها لتلك الحسناء التي لم تملك إلا أن تبتسم لصنيعه ابتسامة رضا وعرفان للجميل ، ثم هرع إليها (مطران) ليواسيها ويخفف من ألمها ، وأخذ يداعبها قائلا عن النحلة التي لسعتها :

إنها معذورة ، فهي تهبط عادة على الورود المتوهجة ؛ لتمتص رحيقها ، ولقد ظنت الخد وردة ، وكتب لها على الفور بيتين يسجلان هذا المعنى وليبدأ بهما الفصل الأول من حكاية العاشقين : – بحر الرمل–

أفتدى من لسعتها نحلة تطلب وردا

ظنت الوجنة وردا فأتت ترشف شهدا [١]

ثم كانت شكوى الحسناء من ألم اللسعة التي فسرها (مطران) بأنها كفارة لها عمن ستقتلهم بسحرها ودلالها . – بحر السريع–

مرّ لها الحسن على كونه حلواً وقد أغرى بها النحلا

(١) ديوان الخليل– ج ١ ، ص١٨٥ .

لعلهـــا كـــفارة قـدمـــت عمـــن سيقضـــون بهـــا قتلـــى[١]

وتتوالى لقاءات العاشقين ، ومن بينها لقاء شاهدا فيه منطاداً يصـــعد في الهواء – وكان المنطاد من المخترعات الحديثة في ذلك الحين – فـــنظم الخليل أبياتا تمنى فيها أن يحمله المنطاد برفقة حبيبته إلـــى أوج العـــلاء ، ويطير بهما مدى الدهر في عرض الفضاء ، وهما في نشوة روحية لا تعكر صفوهما عيون الرقباء ... ــ بحر الوافر–

وددت لـــوان منطـــاداً خفيفـــا تحملـــنا إلـــى أوج العـــلاء
وأطلقـــنا فرحـــنا في عنـــاق طـــوال الـــدهر في عـــرض الفـــضاء
كـــدفع الأم فرخيـــها فطـــارا لأول مـــرّة خـــلل الهـــواء
بأجنحـــة ضعـــاف شـــددتها ممـــالأة الصـــبابة والرجـــاء
فـــهاما في العمـــيق مـــن المهـــاوي وعـــاما في الســـحيق مـــن الخـــلاء
وذاقـــا للهـــوى سكـــراً عجيبـــا طـــلاه مـــن الطلاقـــة والضـــياء
لـــدن شمـــس النهـــار تســـيل حبـــا وتســـقى الطـير في كـأس السماء[٢]

ويكشف الشاعر عن لقاء ــ دون ترتيب ــ أمن فيه العاشقان أعـــين الرقباء ، فأنسا فيه ببعضهما ، وذاقا نعيم السهد ، وأخمدا جذوة الشـــوق .. يقول : ــ بحر الوافر–

فما أنسى تلاقينا هجيعا بلا وعد كما شاء الهيام
كأنا شعلتان إذا اعتنقنا على ظمإ فلم يرو الأوام
رعاه الله ليلا فيه ذقنا نعيم السهد والرقباء ناموا

(١) السابق ذاته ، والصفحة نفسها .
(٢) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٨٦ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فكان من الظلام لنا ضياء وكان من الضياء لنا ظلام[١]

وفي لقاء آخر ، ترفرف سعادة الحب على العاشقين ؛ إذ يجتمعان في روض تقر بحسنه العيون ، حيث خمائل الأشجار المتكاثفة بأعمدتها الخضراء الزمردية ، والصفراء المذهبة بنور الشمس ، وهواء النسيم اللين ، والسواقي المتحركة ، والظلال المتشابكة ، والأحجار الضاحكة ، وفى هذا الجمال الخلاب كانت معه حبيبته التي أسماها هنا " هنداً " وتخيلها سلطانة متربعة على عرش الجمال .. – بحر الكامل –

حملت مظلات لنا الشجرُ وأعد مختبأً لنا الخَمَرُ[٢]
ودعا النسيم العاشقين إلى روض يقر بحسنه النظر
فيه العماد الخضر ينظمها فن بديع الوحي مبتكر
بإزائها عمد مذهبة من حيث نور الشمس ينحدر
متناسق ما بينها حجرا نعم السياج ونعمت الحجر
تجرى سواقيه فعابسة فيها الظلال ويضحك الحجر
وكأنما نسماته كلم وكأنما نفحاته فكر
وكأن هنداً في تخطرها سلطانة رفعت لها سرر[٣]

(١) السابق ، ج١ ، ص ١٨٩.
(٢) الخَمَرُ : ما وارى الشخص من الشجر والجبال والرمال ونحوها " علي الكبير ــ محمد أحمد حسب" ــ هاشم محمد شاذلي ــ سيد ص١٢٦٠، مادة " خمر "، ينظر : لسان العرب – ابن منظور – تحقيق : عبد رمضان أحمد ــ طبعة : دار المعارف – مصر د.ت ،
(٣) ديوان الخليل ، ج١ ، ص١٩٠ .

ويستلهم العاشقان قصة "آدم وحواء" مع ثمار الجنة ، وكيف خالفا أمر الله سبحانه وتعالى لهما بارتكابهما ذنب الأكل من الشجرة التي نهيا عنها ، ففقدا نعيم الجنة ، ولكن العاشق يخبرها بأن الحب والهوى عوض للبشر عن كل نعيم الجنة ، وأن جمالها الفتان هو النعيم كله ، ومن ثم فحواء لم تغو "آدم" ، وإنما أحيته بحبها وفتنتها ، فالحب في نظر العاشق هو صفو الحياة ونعيمها ....

حواء هذى جنة أُنُفٌ[١] ... أنا آدمٌ فيها وذا الثمر
فرنت إلى غصن به علقت ... تفاحة يشتاقها البصر
قالت : ألا أرقى فأقطفها ؟ ... فأجبت : إن العبد يأتمر
وأنلتها كتفي لأرفعها ... فسمت لتجنيها ولا حذر
ثم اقتسمناها كما اقتسمت ... قِدْمًا على ما قدَّر القدر
فتحول الجهل العهيد بنا ... علما وبان النفع والضرر
وإذا بنا متداريان وما ... غير الهوى ستر فنستتر
ذنب أتيناه مشاطرة ... والذنب شفع وهو ينشطر
لا بأس من فقد النعيم به ... وقد استعاضت بالهوى البشر
حواء فتنتك النعيم لنا ... لا الماء والأطيار والزهر
حواء ما أغويت آدم بل ... أحييته والصبوة العمر
من لم يحب فما الصفاء له ... صفو وما كدر به كدر
ينجاب عن وجه الحياة كما ... تنجاب عن مرآتها الصور[٢]

---

(١) جنة أنف : لم توطأ ، اللسان ، ص ١٥٢ ، مادة :" أنف " .
(٢) الديوان ، ج١ ، ص ١٩٠ – ١٩١ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وتصيب (مطران) الحمى ، فتحول بينه وبين لقاء مضروب بينهما ، فيخشى ارتيابها في حبه لها ، واشتياقه لقاءها ، على الرغم من اشتعال نارين في جسمه وقلبه ، نار الحمى ، ونار هواها .. فيعتذر إليها في قصيدة بعنوان "اعتذار" وفيها يقول : – بحر الطويل–

لك الأمر إن أنصفتنى فكفي غنما ... وإن تظلمي فالحب شاء ولا إثما
ولكنني أخشى ارتيابك في الهوى ... فإني إذن من دونه أوثر الظلما
أبيت طوال الليل والداء مسهدي ... أعنف نفسى وهى لم تقترف جرما
على ذكر عهد كان لي منك موعد ... بتجديده لو لم تحل دونه الحمى
عَدَت فَعَدت دون المزار ولم أكن ... بمستأخر لو أن لي معها عزما
ففي الجسم نار يلذع القلب وقدها ... وفى القلب نار مثلها تلذع الجسما
وينهض بي حبى إذا الشوق هاجه ... ويقعد بالجسم الكلال إذا هما

القصيدة[١]

وفي إحدى الأماسي جلس العاشقان يتناجيان ، وفى أنس القمر الساهر يحدثها عن أشعة جديدة اكتشفت حديثاً تعرف بـ "أشعة رنتجن" ، لونها أزرق ، وشرارها لهب طائر ، كأنما هي زمرد يحمله لهب ثائر ، له عيون نافذة تكشف ما ظهر وما خفى ، وترينا الأجسام شفافة ، تبدو فيها الضلوع والعظام مجردة عن حسنها الناضر ، وبينها الفؤاد يرفرف كالطائر في القفص... – بحر المتقارب ــ

جلست إلى هند ذات مساء ... وآنسنا القمر الساهر
فحدثتها عن ضياء عجيب ... يسر برؤيته الزائر

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٩١ – ١٩٢.

لـــه زرقـــه الـــماء لكنـــه ... شـــرار مـــن النـــار مطايـــر
كمنتشـــر مـــن غـــبار الزمـــر ... د يحملـــه لهـــب ثائـــر
كـــأن بـــه للعـــيون عيـــونا ... فكـــل خفـــيٍّ بـــه ظاهـــر
يرينـــا الجســـوم أضـــالع جفـــت ... وزايـــلها حســـنها النـــاضـــر
هياكـــل محكمـــة شـــادها ... لطيـــف لـــما شـــاءه قـــادر
يـرفـــرف فيـــها الفـــؤاد كـــما ... يـرفـرف فـي القفـص الطـائر[1]

وطربت الفتاة لهذا الحديث ، وتمنت أن تمكنه هذه الأشعة من رؤيـــة مثاله ساكنا في سويداء قلبها ، إلا أن (مطران) أخبرها بأن هـــذه الأشـــعة تكشف كل مستور عن العيون ، لكنها لا تكشف الضـــمائر ولا مـــا يجـــول بالخواطر....

فقالت وقد رابها ما وصفت ... وأورى اللظى طرفها الفاتـر :
أتبـدو خـبايا القلـوب بـه ... شواخـص ينظـرها الناظـر ؟
فـيا حبـذا هـو نـوراً يريـك ... مثـالك فـي القلـب يـا جائـر
فقلت : أعيـذ وفـاءك مـمّا ... يـريـب فإنـي إذن غـادر
بهذا الضياء يُرى كل جرم ... عـن العـين يسـتره سـاتـر
ولكنـه لا يـرينـا الضمـير ... ولا مـا يجـول بـه الخـاطـر[2]

ثم اتفـق العاشقان على الذهاب لأحد العلماء المختصين بهذه الأشعة لمشاهدة تجربة منها ، وتقدم (مطران) لإجراء التجربة على جسمه ، فبـدا تحت الأشعة هيكلا شفافا مضيئا ، وظهرت ضلوعه وعظامه مجردة مما بها،

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص ١٩٣.
(٢) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٩٣.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

خالية مما حولها ، فلما رأت ذلك رفضت أن تعرض جسمها لهذه الأشعة ، وأبت أن يراها في مثل هذه الحال مجردة مما لها من فتنة وجمال ، فأخبرها بأن جمالها ليس جسديا فحسب ، بل هو جمال روحي أيضا ، وإن زال جمالها الجسدي في عينيه ، فإنه يراه بقلبه الذى يكفيه منها جمال الروح ، وبراءة النفس ، وطهارة الفؤاد....

فثابت إلى دعوتي عن رضى ... كما يأنس الرشأ النافر
فجئنا مكانا كثيف الدجى ... ينير سراج به ساهر
يفيض ضياء ومن حوله ... ظلام محيط به غامر
على كثب ويُرى قاصيا ... كما يُنظَر الكوكب السافر
فدانيتة ولهند فؤاد ... خفوق وفكر به حائر
فلما رأتني أضالع سودا ... يحيط سديم بها باهر
كلوح الزجاج الموج بالنو ... رخط رموزا به ساحر
أبت أن أراها وقد زال عنها ... جمال ملامحها الزاهر
وقالت : عصيتك فيما أشرت ... وبالروح أمرك والآمر
أضن بحسنى وهو شفيعي ... لديك وعلك لي عاذر
فيا هند إن زال عنك الجمال ... فحسب المنى قلبك الطاهر
وإن بان حسنك عن ناظري ... فإن الفؤاد له ناظر[1]

****

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٩٣ – ١٩٤.

ب ـ تصوير جمال المحبوبة :

حرص الشاعر العاشق على إبراز جمال محبوبته في أكثر من موقف بـ (حكاية العاشقين) ، فعندما سألته الحبيبة عن رأيه في أي الملبسين أفضل بالنسبة لها أهو الأبيض أم الأسود ؟ أجاب بأنها جميلة في اللونين ، فهي في اللون الأبيض كالشمس يجلوها الصباح ، وفى الأسود كالبدر يسطع في الليالي الظلماء ... – بحر الطويل–

إذا ما ترديت البياض لتنجلي ... فكالشمس يجلوها الصباح لتسطعا

وإن تؤثري سود المطارف ملبسا ... فكالبدر يختار الليالي مطلعا [١]

وفي مستهل قصيدة بعنوان " ليلة سعد " تصافى فيها العاشقان ، يشدو (مطران) بجمال بقوامها ، وسحر عينيها ، وفتور أهدابها ، وغير ذلك من محاسن ... فيقول : – بحر الوافر–

قوامك لا يعادله قوام ... ومن أوصافك الحسن التمام

وفى عينيك سحر بابلي ... فلا يُدرى أماء أم ضرام ؟

وفى الأهداب ضعف وانكسار ... فكيف تميتنا منها السهام ؟

وفيك عبوسة تحلو لدينا ... فكيف إذا جلاك لنا ابتسام ؟

وفيك لكل عين كل معنى ... تباح له النفوس ولا يرام

محاسن دونها ثارات قوم ... فما لفتى سوى النظر اغتنام [٢]

---

(١) السابق ، ج١ ، ص ١٨٦ .

(٢) السابق ، ج١ ، ص ١٨٩ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ويرسم لوحة فاتنة لمحبوبته في قصيدة القسم ، حينما أقسم فيها بالله بارئ حسنها المعبود ، وبهواها الذى هو روح وجوده ، وبعينيها المتلألئتين كأنهما الفرقدين الباهرين ، وبحاجبيها الحارسين

لهاتين النجمتين ، وبوجنتيها القانئتين ، وبمبسمها العذب المنور في ابتسامه ، الشهد في قبلاته ، وبقوامها اللين المتوج بوجه ساطع كالبدر ، وشعرها الرائع في سواده ، ولمعانه وتموجه وجماله .. بهذا الجمال كله يقسم العاشق الشاعر بأن دينه في حبها هو التوحيد ، وأنه لم يشرك فيه يوما غيرها من بنات حواء... – بحر الكامل–

باللهِ بارئ حسنك المعبود	بهواك إن هواك روح وجودي
بالفرقدين الباهرين تلازما	تحت الجبين لشقوة وسعود
بالحاجبين العاكفين عليهما	لصيانة ولكف عين مريد
بالوجنتين كجنة أزهارها	بيض إذا هي قانئات ورود
بالمبسم العذب المذوب شهده	في نور كل تبسم مشهود
بقوامك اللدن الذى في أوجه	سطع الجمال لقبلة وسجود
بالشعر يغشى غيهب من تبره	ملكا يهمّ بمرتقى وصعود
أقسمت ما أشركت فيك ولم يكن	لي في الهوى دين سوى التوحيد [1]

ولا يفوته وصف جمالها ــ رونقا ووجها ومبسما ــ بعد أن أخبره بعض أصدقائه بشفائها من داء ألم بها ... ــ بحر المنسرح ــ

عاد إليها تمام رونقها	وليس للداء فيه من أثر
وجه كتفاحة الشام إذا	ما رويت من مدامع المطر

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٩٩.

عن قانئ اللون ساطع الدرر [١] ومبسم تبسم الحياة به

****

ج ـ رسم ملامح المعاناة من تباريح الهوى ، والشكوى من نأي الحبيبة وصدها :

لقد عانى كثير من الشعراء المحبين ــ في كل عصور أدبنا العربي ــ تباريح الهوى، وشكوا لوعة الوجد ، وقسوة الحرمان ، وقلق الأشواق ، وشدة الصبابة ، ونأي الحبيبة وصدها ، ورسموا بفنهم الشعري ملامح تلك المعاناة ، وجسدوا شكواهم من آثارها فيهم ، ومن ثم لطالما وصفوا أنفسهم وأجسادهم بأوصاف تدل على تهالكهم في حبهم ، وأنهم ــ لا محالة ــ سيقضون بسببه كالسقم والهزال ، والضنى والنحول زيادة على الأسى والكآبة ، والأرق واليأس ، والانقطاع عن الحياة والناس . [٢]

وشاعرنا العاشق واحد من هؤلاء الذين قاسوا تباريح العشق ، وكابدوا هجر الحبيبة ، وصدها ، وقد تجلت في (حكاية العاشقين) أمارات ذلك أسى وكآبة، وسقما وهزالا، وضنى ونحولا، وأرقا ويأسا، وشكوى وموتا قريبا .

فها هو ذا يعلن في مقطوعة " شغف وظمأ " أنه قاسي ضروب الوجد، وسهد الغرام ، حتى ألزمته الحمى فراشه وقد استبد به الشوق إلى حبيبته النائية ، فرأى في منامه أنه جالس على شاطئ النيل في يوم من أيام

---

(١) السابق ، ج١ ، ص ٢٠٨ .

(٢) ينظر : فن الشعر في مجلة المقتطف خلال صدورها من سنة ١٨٧٦م إلى سنة ١٩٥٢م دراسة موضوعية وفنية، ص٣٨ــ رسالة دكتوراه للباحث / محمد الصاوي محمد الصاوي ــ مخطوطة في كلية اللغة العربية بالزقازيق ــ جامعة الأزهر ١٤٣١هـ ــ ٢٠١٠ م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الربيع الجميلة ، وقد انبسطت جنبات النيل حتى صارت كالمرآة الصافية ، فرأى فيها رسم فتاته الحسناء ، فثارت نفسه من لهيب شوقه، وحرارة ظمئه ، وأسرع نحو الماء ليطفئ بما رأى ظمأه ، ولكنه ما كاد يقترب منه حتى تكسر بلّوره ، وتحول إلى ما كان عليه ... – بحر البسيط –

ضجيع مهد لظى الحمى يساورني ... صريع وجْدٍ كوقد النار مشتعل
رأيت حلما كأنى قد ثويت على ... قرب من النيل في يوم أغر جلى
وقد صفا صفوة المرآة منبسطا ... سوىّ وجه كأن الماء لم يسل
وشف حتى بدا لي رسم فاتنتي ... كما يمثله فكري تخيل لي
فثرت للماء من شوقي ومن ظمئي ... أرجو شفاءهما منه بمنتهل
فلم أقدم إلى بلّورة شفتي ... حتى تكسر منحلاً إلى قبل [١]

ويشكو العاشق من استمرار صد الحبيبة ، وطول انتظاره وصلها دون جدوى ، مع لهفته وشوقه إليها... ينفث ذلك في مطلع قصيدته "شكوى" ، فيقول متسائلا : – بحر الوافر–

إلى كم جوبيَ العمرا ... كنضو جائب قفرا ؟
يرى آلاً [٢] على ظمإ ... فيظمأ مرة أخرى
ويخبط في الدجى وله ... ضمير يجتلى بدرا [٣]

ثم يصرح بمنزلة حبيبته التي لا تدانيها منزلة ؛ لأنها الدنيا لروحه ، ومُنَى نفسه جميعا ، فهي قريبة منه مكانا ، بعيدة عنه وجدانا ، لا يروى

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص١٨٧.
(٢) آلاً : الآل : السراب ـــ لسان العرب ، ص ١٧٤ ـــ مادة : " أول " .
(٣) ديوان الخليل ، ج١ ، ص١٨٧.

ظمأه منها ، كسراب لامع يحسبه الظمآن ماء ، ومن ثم فقد يئس من نأيها ، وأشرف على الهلاك ...

ولى حِبٌ هو الدنيا ... لروحي والمنى طرّا
قريب الدار مبتعد ... وكم قرب حكى هجرا
كذاك الآل ملتمعا ... وذاك البدر مفترا
فيا آمال ما بك أن ... تنالي الأنجم الزهرا
ويا قلبي كفاك صدى ... ورود الآل مغترا
بلغنا اليأس مرحلة ... ونبلغ بعدها القبرا [١]

ويخشي العاشق أن تكون الحبيبة قد غضبت لشكواه منها ، ويستولى عليه القلق ، فراح في مقطوعة من خمسة أبيات يستعطفها معتذرا ، ومعترفا بأن الذنب ذنبه هو لا ذنبها ، ويصف حاله وما فعل به شوقه إليها وحبه إياها... – بحر الخفيف ــ

قيل غضبى فهل أجازى وغيري ... مثلما تعلمين صد وأذنب
هكذا الطفل إن أثار بذنب ... أمه راح قبَّلها وهو مغضب
فليكن ما اقترفته أنت ذنبي ... فاغفري ما جرى ولا متعتب
إنني كاتب إليك وودي ... أن شوقي بالشوق لا الحبر يكتب
قلمي بالرجاء يندى ودمعي ... راسم بين كل سطرين كوكب [٢]

(١) الديوان ، ج١ ، ص١٨٧ – ١٨٨ .
(٢) ديوان الخليل ، ج١ ، ص١٨٨ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وكثيرا ما يحاول الشاعر كتمان هواه ، لا خوفا على نفسه ، وإنما حرصا منه على حبيبته من أن تلوكها الألسنة ، مع شقائه ومرضه من إخفاء حبه إياها ... يقول : ــ بحر الوافر ــ

كتمت هواك دهرا لا لخوف وما أنا من يروعه الحمام
ولكني حرصت عليك منهم ولو أودى بمهجتي الغرام
ظللت عليه أخفيه وأشقى إلى أن إلى أن بات وهْوَ بنا سقام (١)

ومن تباريح الهوى ، وفرط هيامه بها ، وشدة عشقه لها ، يصرخ بأنه يحبها ، ولا حياة له بدونها ، وأنه يستعذب الموت في هواها ... يقول: ــ بحر الطويل ــ

أحبك حتى لا سرور ولا منى ولا شمس إلا أن أراك ولا نجما
أحبك حتى ينكر الحب رسله جميلا وقيسا والأولى استشهدوا قدما
ولو لم تكن في الموت سلوى أخافها لأحببت حتى الموت فيك ولو ذُما (٢)

وعلاقة العشاق لا تخلو من شد وجذب ، ومد وجزر ؛ إذ يحدث الغضب والخصام بين العاشقين بسبب كلمة أو تصرف دون أن يرتقي الأمر للقضاء على العلاقة بينهما ، وما هي إلا أن يبوحا لبعضهما بما بين جوانحهما من الهوى والغرام حتى يعودا إلى ما كانا عليه من صفو ووئام .

وهذا ما حدث بين عاشقي حكايتنا ، فقد استبد بالعاشق الولع والهيام، وشكا لفتاته آلامه وما يشعر به من وحدة ووحشة في بعدها عنه ، وصدها إياه ، وتمنيه لو كان قد مات قبل أن يراها ، ويخفق قلبه بحبها ،

(١) الديوان ، ج١ ، ص ١٨٩ .
(٢) الديوان ، ج١ ، ص ١٩٢ .

فغضبت من كلامه وقالت له : كأنك تبغضني بعد أن عرفتني ، وخفق فؤادك بحبي ، فثاب العاشق إلى رشده وقال لها : إني لأبغض روحي ونفسى وعمرى والدنيا والناس أجمعين أما من ملكت علىّ مهجتي – وهى أنت – فلا ، وإن كنت قد تمنيت الموت قبل أن أراك ، فلأنني لا أستحق النعيم الذى عرفته في حبك ، ولا السعادة التي أحسستها في قربك ، ولكن شدة الولع بك غشيتني فلم أدر من أمري شيئاً ، وضرام الحب صعقني كما يصعق الجبل الشامخ مما في جوانبه من زفير وضرام ، فما وعيت ما قلت ، وإذا بها ترتاح لكلامه وتكاشفه بدموعها عما في قلبها من شغف به ، وعشق له ، ويعود الصفو لحبهما ، ويؤكدا ذلك بالقبل والعناق ... يسجل (مطران) ذلك في قصيدة بعنوان : "مغاضبة " ، وقد أطلق علي الحبيبة في هذه القصيدة اسم (سلمى)... – بحر البسيط –

بيني وبينك يا سلمى مغاضبة ... أنت التي علمتني الحزن والأرقا
وأنت علمت جفنيَّ الفراق فما ... تلاقيا طرفة إلا ليفترقا
وأنت أوقدت في جنبي الغرام فما ... رقدت إلا حسبت المهد محترقا
سلمى انظري الروضة الغناء ساكنة ... على نعيم وقلبي ذاكيا قلقا
من علّم الزهر أن يفتر لي كذبا ... وباكىَ السحب أن يندى وما صدقا ؟
ونائحَ الطير إيلامي بمنطقه ... كأنه شارح حالي بما نطقا ؟
ومائسَ الغصن إغرائي بعطفته ... فإن دنوت تسامى نافراً فرقا ؟
هذى ذنوبك يا سلمى جعلتِ بها ... بعد الصفاء حياتي مورداً رنقا
قالت : أليس غريم الشر جالبه ؟ ... فإن تعاتب فعاتب قلبك النزقا
فقلت : لا تظلمي هذا المصاب فقد ... ظن الهوى نعمة لكن أصاب شقا
هل من جناح على قلب رأى شركا ... من غزْل عينيك أن أغراه فاعتلقا ؟

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فليتنـــي مـت لا عـيني إليـك رنـت ... ولا فـؤادي كمـا شـاء الهـوى خفقـا

قـالـت : كأنـك بعـد الحب تبغضنـي ... فقـلـت : أعـذر قـالٍ شـدَّ مـا ومِـقـا

سلمـــى ألم تعلمـــي أن الضـــرام إذا ... مـا شـب في جـوف طـود راسـخ صـعقا

إنـي لأبغـض روحـي عنـدك احتبست ... ودمـع عـينيَ إثـر الـروح منطلـقا

وأبغـض العمـر ممسـاه ومصبحـه ... وفجـره قـاتـل الآمـال والشـفقا

و أبغـض النـاس لا مسـتثنيا أحـداً ... .

.... إلا الـتي لم تـدع مـن مهجـتي رمـقا

حبـا لحسـنك يـا سـلمى و إن هـو لم ... يسـتبق منـيَ إلا الرسـم والحرقـا

قـالت وقـد سـال دمع من محاجرهـا ... أسـى علـيّ ودمعـى بـالسـرور رقـى

وكاشـفتني بمـا تخفـى ضـمائرها ... وهكـذا الزهـر إن نديتـه عبِـقا :

فـدتك نفسـيَ مشـغوفا شـغفتُ بـه ... فـمُرْ مطاعـا ولا رأي لمـن عشـقا

فلـم أجـب وعَـدَتْ في الـروض نافحـة ... مالـت بغصـنين بعـد الصـد فاعتـنقا [1]

****

(١) الديوان ، ج١ ، ص ١٩٤ – ١٩٦.

د ـ الشكوى من الوشاة ، ومكابدة حرقة الفراق ولوعته :

وتمر الأيام ، وتمضي الشهور والعاشقان ينعمان بسعادة الحب وما يكتنفها من قرب وأنس ورضا تارة ، وصد وجفاء وخصام تارة أخرى ، حتى كان عام ١٩٠٢م عندما نجح الوشاة في الوقيعة بينهما فوشوا بـ (مطران) عند فتاته ، فوجدت عليه وقررت السفر إلى أهلها في النمسا – بعد وفاة والدتها إثر مرض عضال أصابها في مصر ، عساها أن تتعزى بسفرها ، وتنسى بعض ما عانته أثناء تمريضها والدتها ، وما أصابها من فجيعة بموتها – قاطعة حبل الوصل بين روحيهما ، فغدت حياة (مطران) بائسة يائسة بعد هذا الفراق الذى جر عليه آلاما شديدة ، فراح في قصيدة له بعنوان "تذكار" يصور وقوفه أمام دارها التي هجرتها بسفرها ، يبكيها ويندب الأيام التي قضاها في جوارها هانئاً سعيداً... ــ بحر الطويل –

أيا دار من أهوى فديتك دارا ... غدت بعدنا للعاشقين مزارا
تذكرني أيام أنسى بقربها ... قديما وليلات مضين قصارا
وساعات أنس كن للعمر زينة ... كما زان في الكأس الحباب عقارا
وساعات شجو تستفيض دموعها ... بها فأرى درّاً نثرن كبارا
وكنت إذا باكيتها من صبابتي ... يكفكف دمعينا العناق مرارا
كأن الذى في مهجتينا من الأسى ... غمام تسامى للجفون فثارا [1]

ثم يعتب عليها لوجدها عليه وسفرها دون أن تعتب عليه بعدما صدقت ما قاله الواشون عنه ، ويشير إلى كذب هؤلاء الوشاة ورياءهم على الرغم من أنهم من أخص أصدقائه ، وأقرب إخوانه إلا أنه قابل منهم هذا

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٩٦.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الصنيع بالسماحة والصفح عنهم ، وخاطبهم بلغة المودة والحب ، ومع ذلك لم يسلموا من هجائه فقد شبههم بالمجرمين ، وما كان هذا منه إلا تنفيسا عن نفسه لما أصابه من كرب وهم بسبب وشايتهم....

كذلك قد أحببتك الحب كله ... وآخر حظي منك كان نفارا
فيا وردتي ماذا أحالك جمرة ؟ ... ويا جنتي ماذا أصارك نارا ؟
جزى الله إخوانا وشوا بيَ عندها ... فكانوا لسعدى حين تم عثارا
يسرون لي شراً ويبدون رأفة ... أكانوا إذن يبغون عنديَ ثارا ؟
يسوموننني خسفا وكنت بمهجتي ... أكف أذى عنهم وأدرأ عارا
يعاطونني كأسا كأن بها دمي ... أراه على المستهزئين مدارا
فإن أبكِ من جرحي تباكوا كأنهم ... همُ لم يديروا في الفؤاد شفارا
على أنني أُغضي وحسبي سماحة ... وحسب المداجي ذلة وصغارا
فصفحا لكم عما اقترفتم أحبتي ... وتدرون أني ما صفحت حذارا
توهمتكم حينا كبارا بنبلكم ... فألفيتكم كالمجرمين صغارا (١)

ثم يتحدث (مطران) عن وردة صناعية كانت قد نسجتها بيديها ، وأهدتها له تذكاراً في ساعة من ساعات الرضا ، موضحا أنه يتناجى مع هذه الوردة ليلا ونهارا ، ويبثها آلام البين ، ويقبلها تشوقا لحبيبته ، وإحياء لآثار حبهما ... فيقول مخاطبا حبيبته متحدثا عن تلك الوردة :

فيا منية للقلب كنتُ بقربها ... أرى كل عسر في الزمان يسارا
ويا جنة النعمى لشاد تشوقه ... على الدهر ما شاق الربيع هزارا

(١) السابق ، ص ١٩٧ ، ١٩٨.

بروحيَ أفدي وردة قد حفظتها ... لذكراك أسقيها الدموع حرارا
أقبلها في كل يوم تشوقا ... لمن نسجتها للغرام شعارا
وأحيي بها آثار حبك شاكيا ... وأسمع نجواها دجى و نهارا (١)

ثم يناشدها ألا تصدق كذب الوشاة وافتراءاتهم ، ولا تمكنهم من سعادتهما التي هي قذى في عين كل حسود ، ويلح عليها بأن تعطف عليه وترأف بفؤاده ، فتعود من النمسا إلى جواره بمصر لينعما بما كانا ينعمان فيها من سعادة الحب ... ــ بحر الكامل ــ

يا علة الحب الصحيح وصحة الـ ... ـقلب العليل وأجر كل شهيد
يا وردة يرتاح جانيها وإن ... دميت يداه بشوكها الممدود
كذب الوشاة بما ادعوه وإنني ... أوفى الأنام بذمتي وعهودي
لا تمكنيهم من سعادتنا التي ... كانت قذى في عين كل حسود
عودي إلى الصفو القديم فإنما ... هو بالودود أبر والمودود
عودي نفر كجانيين إلى الربى ... مستعصمين برابة الأملود
عودي ترجعنا الأرائك غضة ... إذ تعقد الأغصان عقد مهود
طفلان خففنا زوال همومنا ... وتهزنا الأطيار بالتغريد
عودي فنقتطف الأزاهر غضة ... غراء حلاها الندى بعقود
عودي نطر كفراشتين تنقلا ... ثملين يرقصنا الصبا بنشيد
عودي فننتهب الزمان تضاحكا ... وتباكيا بالذكر والتجديد
متعانقين إذا انتبهنا رابنا ... ظلان معتنقان غير بعيد
عودي فنجتنب المجامع رغبة ... عن كاذب من إنسها مفقود

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٩٨ ، ١٩٩.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ونطالب الخلوات بالأنس الذى ... فيه شفاء الخاطر المكدود
فلئن يكن هذا الجفاء تحولا ... فهو التحول من طباع الغيد
أو إن يكن تيها فلا نقض الصبا ... بين التقاء ساعة وصدود (١)

بيد أنها لم تستجب لرجائه ، ولم تستمع إلى ندائه ، وأصغت إلى أقوال الوشاة فيه ، فلم تعد إليه في مصر ، بل لم ترد على قصيدته برسالة تخفف عنه ما يشعر به من وحشة وكآبة ، ولما طال ترقبه لردها دون جدوى اشتد به الأسى ، وتكالبت عليه الهموم ، وبخاصة بعد أن شعر أنه فراق بين قلبيهما ، بل روحيهما ، فنظم قصيدته "عتاب الشاعر والطائر" عتابا لحبيبته في مناجاة رقيقة ، وشكوى مؤثرة من حرقة الفراق ولوعته، مما كاد يقتله بلا ذنب اقترفه في هواها ، وهو الذى عاهدها على الحب وعاهدته على الإخلاص فيه ... يقول (مطران) في هذه القصيدة ...

- بحر البسيط -

يا أيها الطائر المغنى ... بلا نثير ولا نظيم
من لي بشدو طليق فن ... كشدوك المطرب الرخيم
أحببت حسناء ذات دل ... تهوى المنى في جمالها
لو أبصر الراهب المصلى ... طلعتها عاد والها
رأت غرامي فعاهدتني ... على الهوى الطاهر المباح
ثم جفتني وباعدتني ... بغير إثم ولا جناح
فأعتمت بعدها حياتي ... من ذلك الطالع السعيد

(١) السابق ، ص ٢٠٠ .

وصرت أمشي إلى مماتي في ظلمة البائس الطريد [١]

ثم يناجى الطائر ويطلب منه أن يطير به إلى مكان مثالي يعز وجوده على البسيطة ، حيث لا عقوق ولا رياء ولا خصام ، بعد أن نالت سهام هجر الحبيب وجفائه من شغاف قلبه مع أنه يرى الهناء الحقيقي في وصله وقربه حتى ولو أساء إليه...

يا أيها الطائر المغنى بلا نثير ولا نظيم
من لي بشدو طليق فن كشدوك المطرب الرخيم
طربي وأنت الأخ الرفيق إلى مقر من الأنام
لا غدر فيه ولا عقوق ولا رياء ولا خصام
لو كان حبى هنا بقربى لكان حقا هنا الهناء
لكنه غائب وقلبي باك من الهجر والجفاء

ثم يقول :

ولتصلح الطير والنجوم ولتفسد الناس ما تشاء
ما لأخي مهجة نعيم بلا حبيب ولو أساء [٢]

ولما لم تستجب الحبيبة له ، أو ترد على اعتذاره أو تشفق بحاله ، سيطر عليه الهم والقلق ، واستبدت به الحيرة ، وخالجته الريبة والظنون ، وراح يسأل نفسه عن سبب قسوتها تلك هل نالت من نفسها وشاية الواشين؟ أم ملت غرامه ، وعافت حبه ؟ هل انصرفت عنه إلى حبيب سواه في وطنها ؟ ، ولكن ماذا يفعل ليعيد إلى حبهما سعادته ؟ وبينما كان في

(١) ديوان الخليل ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .
(٢) ديوان الخليل ، ج ١ ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

حيرته وقلقه إذ عاد من زيارة النمسا صديق له من رفقاء الصبا ، كان يعرف قصة حبه ، فأسرع (مطران) لزيارته حين علم بعودته لعله يشفي نفسه بنبأ من أنبائها ، ويخفف عنه ما أصابه من آلام فراقها ، غير أن صديقه أخبره بأنها مصابة بداء عضال معد ، فما كان من الشاعر العاشق إلا أن عزم على السفر إليها ، وليصبه ما أصابها من داء ، فهو لا يهاب الموت بل يتمناه طالما أنه مع حبيبته ، فقد خلقا ليعيشا معا ويموتا معا بل إن الموت هو المغيث بوصل ما انفصم من عرى سعادة حبهما... نظم (مطران) تلك الأحداث في قصيدته التي سمى فيها محبوبته " مارية " وجعل عنوانها " روعة نبأ " ... ومطلعها قوله : – بحر الطويل –

أليف الصبا إن خانني بارح الصبا ... فقد كنت لي أبقى وأوفى وأصحبا

ومنها قوله :

أهاب فأورى كالزناد صبابتي ... بما خلته أذكى الفضاء وألهبا
وإن هو إلا قوله متهدجا ... لقد ساءني من دار مارية نبا
فقلت : أبن علّ المنبئ كاذب ... وإلا أعن أطو البلاد توثبا
فعالجني حتى إذا ما أقرني ... شجاني بأنكى ثم راع بأنكبا
وقال : عضال ما بها ، فوددت لو ... ركبت إليها وامض البرق مقربا

ثم يقول :

لئن كان موت في مقبل ثغرها ... سأرشفه منه شهيا مطيبا
خلقنا لكي نحيا ونقضى في الهوى ... أليفين يأبى الحب أن نتشعبا
فإن ساءنا دهر أثيم بفرقة ... فزعنا إلى قبر رحيم فقربا

وأحبب بهذا الوصل بعد انفصالنا ويا موت أنت المستغاث فمرحبا [١]

ولا شك في أن الوله عندما يأتيه نبأ سعيد عن محبوبه ــ وبخاصة عند معاناته لوعة الهجر وحرقة الفراق أو خوفه من موت محبوبه ــ فإنه يكاد يطير فرحا ، ويرى كل ما حوله يشاركه تلك الفرحة .

وهذا ما حدث للعاشق ؛ حيث كاد يهذي فرحا بعد أن بشره أصدقاؤه ــ حين رأوا سوء حاله وما آل إليه من جزع ويأس ، وخافوا أن يقع فريسة لمرض شديد ــ بشفاء الفتاة ، وخلاصها من هذا الداء العضال ، فنظم قصيدة " تكذيب نبأ " عبر فيها عن فرحه بشفائها ، وترحيبه ببشير الشفاء ، وحمد الله على سلامتها ونجاتها من مخالب الخطر وعودة صحتها إليها ، فقال متهللاً : – بحر المنسرح –

يا فرحاً بالربيع والزهر والجدول المستظل في الخمر
يا فرحاً بالنسيم يطربني من غير ما مزهر ولا وتر
يا فرحاً بالعبير يسكرني من كلّ مقبل عطر
يا فرحاً بالشباب أحسبه يدوم حتى نهاية العمر
يا فرحاً بالحياة أجمعها بالنفع منها معا وبالضرر
في كل شيء بها تجدد لي معنى أتى من وراء منتظري
وكل ما في الوجود يحسن لي ما دمت في مأمن من الغير
أكاد مما استخفني فرحى أطير في عالم من الفكر

ثم يقول مَرَحّبا ببشير الشفاء مكذبا ما قاله الطب والأطباء حامداً الله على سلامتها ونجاتها من دائها ...

(١) ديوان الخليل ، ج ١ ، ص ٢٠٥ ــ ٢٠٧ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أهلا بشير الشفاء قل وأعد ... ما شئت تفصيل ذلك الخبر

قد كذب الطب والطبيب ألا ... إنهما علتان للبشر

مشعوذ طائف بشعوذة ... أحسر في عقله وفى البصر

يحمل بلورة ليدرك ما ... ندركه من مجرد النظر

الحمد لله أنها سلمت ... وأفلتت من مخالب الخطر[1]

(١) السابق ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

الفصل الثاني : شقاء الحب

هـ ـ اجترار الذكريات وشجوها ، والوفاء للحبيبة :

بعد أن أودى الحمام بشباب المحبوبة النضر ، وعصف بحياتها الخضراء ، وأغمض جمالها المتفتح في ابتسام الربيع ، عجز (مطران) عن مواجهة النازلة في شجاعة ، ولم يجد سبيلا للصبر والعزاء بعد أن فقد كل أمل وسلوى ، ولم يبق له إلا الوحشة والالتياع والحرمان ، فراح يبكى محبوبته ويستبكى عليها في شعر ينضح بالألم والمرارة ، ويفصح عما في قلبه من كمد دفين ، وشجن عميق ، ومن ينعم النظر في قصائد الفصل الثاني من مجموعته الشعرية (حكاية عاشقين) ، والتي نظمها الشاعر العاشق بعد موت حبيبته ، وجمعها تحت عنوان " شقاء الحب " ، يتبين له إحاطتها بسياج أو بعد فكري واحد ؛ إذ تدور في جملتها حول اجترار الذكريات وشجوها ، والوفاء للحبيبة ، وعلى رأسها خماسية بعنوان " مثال في مرآة " ، بكى فيها واستبكى عليها ، وندب سعادة الحب في حياتها .. يقول : – بحر الكامل ــ

من بالمنون لوالـه صـب ذاكي الأضالع مقلق الجنب
ليت الرزيئة فيك أودت بي فنجوت من ألمى ومن كربي

وفزعت من نفسى إلى ربي

يا منيتي ما كنت بالجزع في حادث أيام كنت معي
والآن بت مخلد الفزع ميتا بلا أمل ولا طمع

حيا بذكر معاهد الحب

كنا وكان الحب يجعلنا مَلَكين في فلك يجللنا

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

روحين في روح يظللنا نوريـن فـي نـور يكللنا

متقلدين قلائد الشهب

كنا وكان الحب ينصبنا مَلِكين تاج السعد يعصبنا

لا شيء يحزننا ويغضبنا والدهر يخدمنا ويرهبنا

وسريرنا عال على السحب

كنا وكان الحب يجمعنا إلفين في الفردوس مرتعنا

لا شئ بعد الحب يطمعنا لا نبتغي أمرا فيوجعنا

إخفاقنا في المطلب الصعب

كنا كغصني دوحة نبتا بل زهرتي غصن تعانقتا

بل حبتين بزهرة نمتا وتساقتا لما تعاشقتا

نار الغرام مع الندى العذب

تمت سعادتنا على قدر فسطت عليها غيرة القدر

أودت معاً بالعين والأثر وتخلف الباقي من الخبر

ذكرى وتبصرة لذى لب

فكأنما المَلَكان ما نعما وكأنما المَلِكان ما حكما

وكأنما النوران ما ابتسما أعجب برؤيا واهم وهما

تقضي بلا بدء إلى غب

وكأنما الروحان ما اعتلقا وكأنما الإلفان ما اتفقا

وكأنما الغصنان ما اعتنقا الدهر يكذب حيثما صدقا

ما أقرب الماضي إلى الكذب

ثم يقول :

ماتت وكل ضاحك جذل ما للورى ولموت من جهلوا

لا قلب يبكيها ولا مقل بل نبلها واللطف والأمل

وشبابها وطهارة القلب

ماتت ونور الفجر مرتسم في الماء فهو أغر مبتسم

والروض زاه بالندى شبم والطير تصدح فيه والنسم

والزهر والأغصان في لعب

تلك المحاسن فى تفردها تلك الفضائل فى تعددها

تلك الشمائل فى تجردها عن كل شائبة بموردها

أنى تبيت وديعة الترب ؟

أين الدموع تدرها السحب ؟ أين الحمام يبيت ينتحب ؟

ولمن رياض الأنس تكتئب ؟ ولمن تعد حدادها الشهب ؟

فتغيب في سود من الحجب ؟

مرت بهذي الدار وانصرفت والناس تجهلها لما لطفت

ما خطبهم في وردة قطفت من روضة أو بانة قصفت

في عنفوان شبابها الرطب ؟

كانت لها الدنيا بما اشتملت مرآة حسن كيفما انتقلت

حتى إذا ما عوجلت فجلت عنها صفت مرآتها وخلت

منها ومن أثر بها يُنبِى[1]

(١) ديوان الخليل ، ج ١ ، ص ٢٠٩ ــ ٢١٢ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ويظل (مطران) بعد فقد أليفته سجين الأسى ، رهين البكاء والتفكير حتى نحل جسمه ، ووهنت قواه ، واستولى عليه المرض ، ثم ساءت حالته، فتوهم أنه مصاب بالداء الذى ماتت به حبيبته ، وتحول هذا الوهم عنده إلى ما يشبه اليقين ، لكنه لم يخف ولم يخش الموت بل تمناه ليلحق بها ، وينجو من شقائه ، ويهنأ بأنسها في دار البقاء ، فحياته دونها لا لذة لها ، ولا سعادة بها ، ولا مطمع فيها ، ولا أمل .. عبر عن ذلك في قصيدة بعنوان " إلى حبيب ميت من مائت بدائه " يقول فيها : – بحر الطويل –

عفاء لهذا العيش ما لي وما له ... وقد ساء عندي ما يُمر وما يُحلى
أأخشى لقاء الموت والموت منقذ ... وأحرص في الدنيا على الضيم والغلّ ؟
عدمت إذاً قلبي ولو كان واقيا ... تلقى الردى كالخل يأنس بالخل
ولكن بي داء ألان عريكتي ... وأوهن من عزمي وأضعف من نبلي (١)

ثم ينتقل إلى وصف مرضه ، ويصور كيف رأى طيف حبيبته – من خلال آلامه التي يعانيها– كأنه شهاب ينير بآثاره المضيئة حياته حتى لقائها...

تواصلني الحمى وتوشك نارها ... تأجج في وجهى وفى ملمسي تصلى
ورأسيَ مصدوع وصدريَ ضائق ... وجسمي كشخص قائم الرسم منحل
وقلبيَ مسموع الخفوق معلق ... بمنهدم الأركان أجوف معتل
ورقت حواشي مهجتي وتلطفت ... بعينيَ مألوفاتها حين أستجلي
رأى خلل الأشياء رسم مطوح ... به الغيب عنى في بعيد من السبل

(١) ديوان الخليل ، ج ١ ، ص ٢١٣ .

شهاب أنير العمر حتى لقائه بآثاره الغراء في القلب والعقل [١]

ثم يناجى حبيبته ويخبرها بمدى حزنه عليها ، ووفائه في حبها وهواها ، وأن الداء الذى أساء إليهما ، وفرق بينهما سوف يسعدهما بالوصل مرة أخرى ، عندما يودى بحياته ويلقاها في مستقرها...

حبيبة قلبي إن تكوني سبقتني فحزنيَ لم يُسبق وما للهوى مثلى
فقدتك بالداء الذى هو قاتلي فإن ساءنا بالفصل أسعد بالوصل
كأنىَ من قبلٍ بلوت عذابه وأنت التي عانيتُه بكِ من قبل
فيا عهد سعدى حين كنتِ بجانبى ويا عمراً أبقيتِ للحزن والثكل
ويا شمس قبر صار مطلع نورها ومغرب صبح قد تحجب بالرمل
عليك سلام العاشق المدنف الذى يسير إلى قبر الحبيب على مهل (٢)

وتمضى الأيام ، وتمر السنون والعاشق حزين على فقيدة حبه ، ودنيا هواه التي طواها الردى ، لا تمر به مناسبة تثير نفسه ، أو يقع له حادث يهز عاطفته ، أو يرى أثراً من آثارها إلا عادت إليه ذكراها فيبكى عليها بدمع هتون ، ويندبها ، ويتألم لفراقها ، ويتمنى لو لحق بها في دار البقاء ، لتنطفئ جذوة الشوق المستعرة في فؤاده ، وينعما بوصل روحيهما بعد فراقهما ، وهذا ما نطقت به قصيدته "نعمة وذكرى " التي خطرت له فدبجها بعد أن سمع قينة تتغنى وتضرب العود ، ومنها قوله : – بحر الرمل –

إن لي في الغيب إلفا قد نأى عني نفورا
حجبت منه الليالى عنىَ الصبح المنيرا

(١) ديوان الخليل ، ج ١ ، ص ٢١٣ .
(٢) السابق ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

منيـة قـد أصبحـت فـي خـاطـر الـدهـر ضمـيرا
فـارق الـدنيـا وأبقـا نـى جزوعـا مستطـيرا
أبتغـى السعـي إليـه حيثـما بـات قـريـرا
فـإذا أدركتـه أطـ ـفأت من وجـدى السعـيرا
واتحـدنـا فاغتـدينـا مـزج روحـين سـرورا
وتآلفنـا علـى الدهـ ـر نسيمـا وعبيـرا
أو شعـاعا إن تبينـ ـت فنـور ضـم نـورا (١)

وفي قصيدة " الأثر الباقي " يعلن العاشق وفاءه لمحبوبته حين ينعى في قلبه الحب والغرام ، بل ينعى شبابه وحياته كلها بعد مـوت الحبيبـة ، ويعود إلى الماضي يجتر منه ذكريات هواهما بكل ما فيها ، ويقـارن بـين حاله في حياتها ، وبين ما آل إليه بعدها ، فيقول متأسفا علـى ذاك العهـد ملتاعا:ـ بحر الكامل ـ

يا قلب مات بك الغرامْ فعلى بقيتك السلامْ
ما تنفع الكأس التـي بقيت وقد فني المدامْ
ولّى شباب النفـس إنّ شـبابها لهو الهيامْ
وعفا الرجاء فلا السها د إذن يطيب ولا المنامْ
بان الحبيب فما صـفا ئي في معايشة الأنامْ ؟
ولمن سلمت ، وحـب من أتحمل الكرب الجسامْ ؟
ولقد أكون وكل هـمـ ـيَ هجر يوم أو خصامْ
فغدوت أصماني الردى بأشد ما تصمي السهامْ

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

في خير شطـريْ مهجتي أولاهما أن لا يـضامْ
ومنيت بـالهجـر الـذي لا ملتقـى معه يرامْ
فعجبت أني كنـت أشـ ـكو حادثا قبل الحِمامْ
أسفي على عهـد مضى ولْيشقه صوب الغمـامْ
أسفي على حـب بـرى هذا الفؤاد المسـتهامْ
فعذابه عـذب ونـا رأسـاه برد في سلامْ
أسفي على جرحي القديـ ـم وليت ذاك الجرح دامْ
فلقد شفـيت ومنيتي لو ظل قلـبي وهو دامْ
لا كان لي هـذا الشفا ء وحبـذا ذاك السقامْ

..... القصيدة [1]

وكذلك الأمر في قصيدة "المنديل" التي نظمها عندما وجد يوما – وهو يقلب ملابسه في صوانه – منديلا أبلاه مرور الأعوام عليه ، ولم يسلم منه إلا الموضع الذى طرزت عليه حرفين مشتبكين من اسمها ، فاهتاج له وبكى ، وأخذ يناجيه طالبا منه أن يعيد عليه أيام حبه ، وذكريات هـواه – وقـد أطلق عليها اسم "ليلى" – بقوله : – بحر الطويل–

أعـد أيها المنديل ذكراً محببـا وأنطق به الطيب الذى فيك مطربا
وأطنب بما تحكيه عنها فإنـه إذا ساء إطنـاب حببتك مطنبا
فذلك ذكر الحب أنت تعيـده بل العمر أشهى ما يكون وأعـذبا
وما بك من نشر ففي القلب مثله طواه الهوى قدما وما زال طيبا

ثم يقول :

(١) ديوان الخليل ، ج ١ ، ص ٢١٦ ، ٢١٨

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وقالوا غداة البين سلواك في غد فمن عاق هذا الدهر أن يتوثبا ؟
أقلب فيه ناظريّ فلا أرى لياليَه دهما ولا الصبح أشهبا

ثم يقول :

وهل بعد "ليلى" حادث فأخافه ؟ وهل بعدها سعد يظن فأرقبا ؟ (١)

ثم يختم العاشق هذه القصيدة كاشفا عن وفائه لحبيبته ، وتمكن حبها في قلبه ، فعلى الرغم من تعرض الغواني له ، ومرور السنين ، وتنقله من بلد إلى بلد ، إلا إنه ما سلاها ، ولم يعشق سواها ، ومن ثم فهو يعيش على ذكراها ، وما تبقى من قلبه ما زال نابضا بحبها ... فيقول :

وكم عرضت لي غانيات فعفتها وصنت ضميري واللسان المشببا
وكم بلد وافيته متلهيا فغادرته أدمى فؤادا وأنكبا
وما زال هذا الحب فيَّ مؤيدا مكينا نبت عنه السنون وما نبا
وما زلت يا منديل " ليلى " ملازمي تنشقني الذكرى نسيما مطيبا
أصابك ناب قارض من فم البلى إلى موضع فيه اسمها فتجنبا
وغال فؤادي البين إلا بقية قضى الحب أن أحيا بها فأعذبا (٢)

ثم يذرف (مطران) دموعه على محبوبته أسفا ووفاء في قصيدة بعنوان " دمعة على فقيدة " ، فيصور عود ربيع الدنيا بالسعادة والبهجة والجمال ، بينما راح يبكي ربيع عمره ؛ إذ استحالت زهوره شوكا ، وأنهاره دموعا ، ناعيا شبابه الذي خاصم فيه الراحة والفرحة والسلوى بعد فقد الحبيبة .....

(١) السابق ، ص ١٢٨ ، ٢١٩ .
(٢) ديوان الخليل ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .

يقول : ــ بحر الكامل ــ

عاد الربيع وحبـــذا عود الربيع إلى الربوعْ
عود تســـر به الخلا ئق وهو عيـــد للجميعْ
بسطت سنادسها الريا ض وأورقت فيها الفروعْ
وازَّيَّنت أثـــوابها بزخارف الوشي البديعْ
ما بال قلبـــي آسفا كلفا بإقلاق الضلوعْ
فكأن جنبيَ مهـــده وكأنه عـــان ضجيعْ
يبغي الشفاء مع الولو ع ولا شفاء مع الولوعْ
ولو انه رام الســـلوَّ فإنه لا يســـتطيعْ
ألِف الصبابة فهي أمٌّ مـــرضع وهو الرضيعْ
والطفل يشقى بالفطا م فإن يَسُمْه فما يطيعْ
يا للربيـــع وزهره شوك وأنهـــره دموعْ
يا للشباب ولا ســـرو رولا عـــزاء ولا هجوعْ
منْ كان مفقود الحبيـــ ـب فلا شباب ولا ربيعْ (١)

وفي قصيدته "كان" يجمل حكاية عشقه حيث كانت السعادة والبهجة والسرور ، وحيوية الشباب وروعة الفن في صحبة حبيبته ، روح روحه ، وقرة عينه ، تلك الحكاية التي لم يبق فيها بعد موتها سوى المرارة والحسرة ، واجترار الذكريات وذرْف الدموع والاعتبار ... فيقول : ــ بحر المجتث–

سررت في العمر مرهْ وكنـــت أنت المسرهْ
كانت حياتيَ روضا وكنت في الروض نضرهْ
وكان غصنا شبابي وكنت في الغصن زهرهْ

(١) ديوان الخليل ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وكان فكري سماء ... وكان حبك فجره
وكان حسنك يوحي ... إلى يراعيَ سره
وكان لحظك يهدي ... إلى بياني سحره
وكان ثغرك يملي ... على سماعيَ دره
وكان طيبك يهدي ... إلى ثنائيَ نشره
وكنت للروح روحا ... وكنت للعين قره
قد "كان" هذا ولكن ... مضى وأخلف حسره
فبت لا شيء إلا ... حالين : ذكرى وعبره [١]

وهكذا انتهت حكاية العاشقين العذرية التي بدأت كما يقول (مطران) في ربيع عام ١٨٩٧م ، وأسدل الستار على الفصل الأول منها – "سعادة الحب" – في عام ١٩٠٣م بوفاة الحبيبة ، أما الفصل الثاني وهو "شقاء الحب" فينتهى بوفاة (مطران) العاشق الذى عاش على ذكراها وفيًّا لها ستة وأربعين عاما بعدها ضاربا أروع الأمثلة في الوفاء للمحبوب حتى وافته منيته في مساء الثلاثين من يونيه سنة ١٩٤٩م ، وقد بلغ السابعة والسبعين من عمره. [٢]

(١) السابق ، ص ٢٢٢ .
(٢) ينظر : حياة مطران ، طاهر الطناحي ، ص ١٢٥ وما بعدها .

المبحث الثاني

الأبعاد الفنية في (حكاية عاشقين)

أولا ـ التعبير الشعري :

استطاع (مطران) خلال مجموعته الشعرية (حكاية عاشقين) أن يجسد تجربته الوجدانية بكل أحوالها ، وأن يعبر عن عاطفته وشعوره فيها أصدق تعبير .

وما من شك في أن التجربة الشعرية تظل مختزنة في عقل الشاعر ومكنونات نفسه ، لا ترى النور إلا إذا عبر عنها من خلال اللغة ــ بألفاظها وأساليبها ــ ونقلها إلى الصورة التي يمكن معها وقوف المتلقي على هذه التجربة ، وفهم مضمونها ، والتفاعل معه ، ومن ثم كان للألفاظ والأساليب أهمية كبرى في بناء العمل الشعرى ، والتعبير عن صاحبه ، وفى السطور القادمة سنقف ــ بمشيئة الله تعالى ــ على الألفاظ وسماتها ، والأساليب وقسماتها في حكاية مطران الوجدانية على النحو التالي .

ـ الألفاظ :

اللفظة أو الكلمة هي " أداة الأديب في نقل أفكاره ، ورسم صوره ، وبناء موسيقاه ، وهى الوعاء الذى يصب فيه الأديب ما تجيش به عاطفته من معان وخواطر، وأحاسيس ومشاعر ... ومن هذه الكلمة تتكون العبارة ، وتتكون الصورة الأدبية ، ويتخلق أسلوب الأديب الذى يعرف به ، وينسب

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

إليه ، ومن الكلمة تتكون الموسيقى اللفظية فيما نقرؤه من شعر موزون ، وفيما نتلوه من جمل لها توقيع منغوم " (١).

والشاعر الجيد " هو الذى يساعده قاموسه اللغوي على دقة المنطق ، والدلالة المسددة ، والتوصيل الإيجابي " (٢)؛ حيث يضع نصب عينيه ما وقف عليه نقادنا القدماء من أن يختار لكل معنى من معانيه " اللفظ الذى هو أخص به ، وأكشف عنه ، وأتم له ، وأحرى بأن يكسبه نبلا ، ويظهر فيه مزية" (٣).

فالألفاظ التي يصور بها الشاعر تجربته ينبغي أن تكون متناغمة مع الجو الشعري الذى يصدر عنه ، ومتلائمة مع الأغراض والمعاني التي تمور بوجدانه ، وتسيطر على أحاسيسه ومشاعره ، وتجيش بها عاطفته .

ولقد اهتم (مطران) باختيار ألفاظ (حكاية عاشقين) ، وحرص على وضع كل كلمة في مكانها المناسب ؛ فجاءت مؤدية لمعانيها التي أنيطت بها في دقة ووضوح ، وسهولة وألفة ، وعذوبة ورقة ... بعيدة عن التقعر والتكلف من ناحية ، والابتذال والإسفاف من ناحية أخرى .

ففي كل شعر الحكاية نرى فيضا هائلا من الألفاظ السهلة المألوفة ، العذبة الرقيقة ، الموحية التي تعبر عن هذا البعد الفكري الذي جاءت فيه ، ففي : " تصوير لقاءات العاشقين ، وما يتعلق بها " ، نرى كثيرا من الألفاظ

---

(١) في ميزان النقد الأدبي ــ د/ طه مصطفى أبو كريشة ــ ص٢١ .

(٢) النقد الأدبي الحديث ــ أصوله واتجاهاته ــ د/ أحمد كمال زكى ــ ص٨٢ ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م .

(٣) دلائل الإعجاز ــ للإمام عبد القاهر الجرجاني ــ تعليق/ محمود محمد شاكر ــ ص٤٣ ــ مطبعة المدني ــ نشر مكتبة الخانجي ــ القاهرة ١٩٨٤م .

التي تتضمن ملامح هذا البعد ، وترسم معانيه ، كألفاظ : أوج العلاء ـ عرض الفضاء ـ طارا ـ خلل الهواء ـ الصبابة ـ الرجاء ـ الخلاء ـ ذاقا ـ للهوى ـ سكرا عجيبا ـ الطلاقة ـ الضياء ـ شمس النهار ـ حبا ـ الطير ... في قوله : ـ بحر الوافر–

وددت لو ان منطاداً خفيفا تحملنا إلى أوج العلاء
وأطلقنا فرحنا في عناق طوال الدهر في عرض الفضاء
كدفع الأم فرخيها فطارا لأول مرّة خلل الهواء
بأجنحة ضعاف شددتها ممالأة الصبابة والرجاء
فهاما في العميق من المهاوي وعاما في السحيق من الخلاء
وذاقا للهوى سكراً عجيبا طلاه من الطلاقة و الضياء
لدن شمس النهار تسيل حبا وتسقى الطير في كأس السماء [١]

وإلى جانب أوصاف مكان اللقاء كما تمناه العاشقان في الأبيات السابقة ، نجد ملامح زمن اللقاء وأحوال العاشقين به ، وذلك في ألفاظ : تلاقينا ـ هجيعا ـ بلا وعد ـ الهيام ـ اعتنقنا ـ ظمأ ـ الأوام ـ ليلا ـ نعيم السهد ـ الضياء ... في قوله : ـ بحر الوافر–

فما أنسى تلاقينا هجيعا بلا وعد كما شاء الهيام
كأنا شعلتان إذ اعتنقنا على ظمإ فلم يرو الأوام
رعاه الله ليلا فيه ذقنا نعيم السهد والرقباء ناموا
فكان من الظلام لنا ضياء وكان من الضياء لنا ظلام[٢]

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٨٦ .
(٢) السابق ، ج١ ، ص ١٨٩.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وعندما عمد إلى " رسم جمال المحبوبة " ، نجد الشاعر العاشق قد يمم وجهه شطر ألفاظ : البياض ــ الشمس ــ الصباح ــ مشعشعا ــ البدر ... في قوله مجيبا إياها عندما سألته : في أي اللونين أكون أجمل (الأبيض أم الأسود) ؟ : – بحر الطويل –

إذا ما ترديت البياض لتنجلي فكالشمس يجلوها الصباح مشعشعا
وإن تؤثري سود المطارف ملبسا فكالبدر يختار الليالي مطلعا [١]

ومن هذه الألفاظ أيضا : قوامك ــ الحسن ــ التمام ــ عينيك ــ سحر بابلي ــ الأهداب ــ السهام ــ ابتسام ــ محاسن ــ النظر ... في قوله : – بحر الوافر–

قوامك لا يعادله قوام ومن أوصافك الحسن التمام
وفي عينيك سحر بابلي فلا يُدرى أماء أم ضرام ؟
وفي الأهداب ضعف وانكسار فكيف تميتنا منها السهام ؟
وفيك عبوسة تحلو لدينا فكيف إذا جلاك لنا ابتسام ؟
وفيك لكل عين كل معنى تباح له النفوس ولا يرام
محاسن دونها ثارات قوم فما لفتى سوى النظر اغتنام [٢]

وواضح ما في هذه المفردات من رقة وعذوبة ، وإيحاء بجمال المحبوبة ، ومثلها أيضا : حسنك ــ الفرقدين الباهرين ــ الحاجبين العاكفين ــ الوجنتين ــ جنة ــ أزهارها ــ بيض ــ قانئات ــ ورود ــ المبسم العذب

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٨٦.
(٢) السابق ، ج١ ، ص ١٨٩ .

ـ شهده ـ نور ـ تبسم ـ قوامك اللدن ـ سطع ـ الجمال ـ الشعر ـ تبره ... في قوله : – بحر الكامل–

بـــالله بـــارئ حســـنك المعبـــود بهـــواك إن هـــواك روح وجـــودي
بالفرقـديـن البـاهـرين تلازمـا تحـــت الجـــبين لشقـــوة وسعـــود
بالحـاجبـين العاكفـين عليهمـا لصيانـــة ولكـــف عـــين مريـــد
بالوجنتـــين كجنـــة أزهـارهـــا بيـــض إذا هـــي قـانئـــات ورود
بالمبسـم العـذب المـذوب شهـده فـــي نـــور كـــل تبســـم مشهـــود
بقوامـك اللـدن الـذى في أوجـه ســـطع الجـــمال لقبلـــة وسجـــود
بالشعـر يغشـى غيهب من تبـره ملـــكا يهـــمّ بمرتقـــى وصعـــود
أقسمت ما أشركت فيك ولـم يكن لـي في الهوى دين سوى التوحيد [١]

وفي رسمه " ملامح المعاناة من تباريح الهوى ، والشكوى من نـأي الحبيبة وصدها " ، يطالعنا حشد هائل من الألفاظ التي تكشف عن حجم مـا كابده الشاعر العاشق من تباريح حبه وهواه من ناحية ، ومن هجر الحبيبة وصدها من ناحية أخرى ، ومن بين تلك الألفاظ : ضجيع مهد ـ لظى الحمى ـ صـريع وَجْـد ـ وَقْـد النـار ـ مشـتعل ، وذلـك فـي قولـه : – بحر البسيط –

ضجيع مهد لظى الحمى يساورني صريع وجْدٍ كوقد النار مشتعل[٢]

ومنها : مغاضبة ـ الحزن ـ الأرقا ـ الفراق ـ يفترقا ـ أوقدت ـ محترقا ، في قوله : – بحر البسيط –

---

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٩٩.
(٢) السابق ، ص ١٨٧ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بيني وبينك يا سلمى مغاضبة أنت التي علمتني الحزن و الأرقا
وأنت علمت جفنيَّ الفراق فما تلاقيا طرفة إلا ليفترقا
وأنت أوقدت في جنبي الغرام فما رقدت إلا حسبت المهد محترقا (١)

ومنها أيضا : نضو ــ قفرا ــ آلا ــ ظمأ ــ يخبط ــ الدجى ــ بدرا ــ حب ــ قريب الدار ــ مبتعد ــ قرب ــ هجر ــ صدى ــ اليأس ... وغيرها كثير .

وفي " الشكوى من الوشاة ، ومكابدة حرقة الفراق ولوعته " ، يختار الشاعر ألفاظا تعكس ضجره وتألمه من أهل الوشاية ، وبخاصة حين يكونون من أصحابه ، كما يبين التياع فؤاده وحرقته بعد فراق محبوبته ؛ بسبب وشايتهم ، ومن هذه الألفاظ : آخر حظي ــ نفارا ــ أحالك ــ جمرة ــ أصارك ــ نارا ــ وشوا ــ عثارا ــ يسرون ــ شرا ــ ثارا ــ يسومونني ــ خسفا ــ أبك ــ جرحي ــ المداجي ــ ذلة ــ صغارا ــ اقترفتم ــ توهمتكم ــ المجرمين ... وذلك في قوله : ــ بحر الطويل –

كذلك قد أحببتك الحب كله وآخر حظي منك كان نفارا
فيا وردتي ماذا أحالك جمرة ؟ ويا جنتي ماذا أصارك نارا ؟
جزى الله إخوانا وشوا بيَ عندها فكانوا لسعدى حين تم عثارا
يسرون لي شراً ويبدون رأفة أكانوا إذن يبغون عنديَ ثارا ؟
يسومونني خسفا وكنت بمهجتي أكف أذى عنهم وأدرأ عارا
يعاطونني كأسا كأن بها دمي أراه على المستهزئين مدارا

(١) السابق ، ص ١٩٤ .

فإن أبكِ من جرحي تباكوا كأنهم هـمُ لـم يديـروا في الفؤاد شفـارا
على أنني أُغضي وحسبي سماحة وحسـب المـداجي ذلـة وصغـارا
فصفحا لكم عما اقترفتم أحبتي وتـدرون أنـى مـا صـفحت حـذارا
تـوهمتكـم حينـا كبـارا بنـبلكم فألفيتـكم كالمجرمـين صغـارا [١]

ومن هذه الألفاظ أيضا : علة الحب ــ القلب العليل ــ أجر كل شـهيد ــ دميت ــ شوكها ــ كذب ــ الوشاة ــ ادعوه ــ أوفى الأنام ــ لا تمكنيهم ــ قذى ــ عودي ــ الصفو القديم ... في قوله : ــ بحر الكامل ــ

يا علة الحب الصحيح وصحة الـ ـقلب العلـيل وأجـر كـل شهيـد
يـا وردة يرتـاح جانـيها وإن دميـت يـداه بشوكـها الممـدود
كذب الوشاة بما ادعـوه وإنني أوفـى الأنـام بـذمتي وعهـودي
لا تمكنـيهم من سعادتنا التي كـانت قـذى في عـين كـل حسـود
عودي إلى الصفو القديم فإنما هـو بالـودود أبـر والمـودود [٢]

ومنها أيضا : فديتك ــ أيام أُنسي ــ جفتني ــ باعدتني ــ بغير إثم ــ جناح ــ أعتمت ــ مماتي ــ ظلمة البائس ــ الطريد ... وغيرها .

وبعد أن تخطفت يد المنون حبيبته لم يبق أمام الشاعر العاشق سوى اجترار الذكريات وشجوها ، ولزوم الوفاء للحبيبة ، ومن ثم يلاحظ في هـذا البعد الفكري فيض من المفردات المفعمـة بالشـجو والأسـى ، والحسـرة والمرارة ، وما يكشف وفاءه للمحبوبة ، وبقاءه على عهده بها ، ومن هذه

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص١٩٧ ، ١٩٨ .
(٢) السابق ، ص ٢٠٠ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الألفاظ : المنون ــ واله ــ صب ــ ذاكي الأضالع ــ مقلق الجنب ــ الرزئية ــ أودت ــ ألمي ــ كربي ــ فزعْت ــ منيتي ــ الجزع ــ الفزع ــ ميتا ــ بلا أمل ــ معاهد الحب ... في قوله : – بحر الكامل ــ

من بالمنون لواله صب ذاكي الأضالع مقلق الجنب
ليت الرزيئة فيك أودت بي فنجوت من ألمى ومن كربي
وفزعت من نفسى إلى ربي
يا منيتي ما كنت بالجزع في حادث أيام كنت معي
والآن بت مخلد الفزع ميتا بلا أمل ولا طمع
حيا بذكر معاهد الحب (١)

ومنها أيضا : حبيبة قلبي ــ سبقتني ــ حزني ــ فقدتك ــ بالداء ــ قاتلي ــ ساءنا ــ بالفصل ــ بلوت ــ عذابه ــ عهد سعدي ــ الحزن ــ الثكل ــ شمس قبر ــ مغرب صبح ــ تحجَّب ــ سلام العاشق ــ المدنف ــ قبر الحبيب .. في قوله : ــ بحر الطويل ــ

حبيبة قلبي إن تكوني سبقتني فحزنيَ لم يُسبق وما للهوى مثلى
فقدتك بالداء الذى هو قاتلي فإن ساءنا بالفصل أسعد بالوصل
كأنىَ من قبلٍ بلوت عذابه وأنت التي عانيتُه بكِ من قبل
فيا عهد سعدى حين كنتِ بجانبى ويا عمراً أبقيتِ للحزن والثكل
ويا شمس قبر صار مطلع نورها ومغرب صبح قد تحجب بالرمل
عليك سلام العاشق المدنف الذى يسير إلى قبر الحبيب على مهل (٢)

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص٢٠٩.
(٢) السابق ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

وهناك كثير من الألفاظ الوجدانية الأخرى المعبرة عن هذا البعد الفكري مثل : أسفي ــ الفؤاد المستهام ــ نار أساه ــ جرحي القديم ــ الجرح ــ دامٍ ــ السقام ــ الذكرى ــ غال ــ البين ــ إقلاق الضلوع ــ عان ضجيع ــ الصبابة ــ شوك ــ دموع ــ لا سرور ــ لا عزاء ــ لا هجوع ــ مفقود الحبيب ... وغيرها .

وهكذا جاءت الألفاظ في (حكاية عاشقين) مناسبة لأبعادها الفكرية أو المعاني التي عبرت عنها ، في سهولة وألفة ، ووضوح ودقة ، وعذوبة ورقة ، وفصاحة ورصانة على نحو ما سبق بيانه .

ـ الأساليب :

الأسلوب هو الوعاء الجامع أو العِقد الذى تنتظم فيه الألفاظ المفردة ، وتتآزر لنقل التجربة الأدبية ، وتوصيلها للمتلقين ، ومن ثم عرفه أحد القدماء بأنه عبارة عن : " المنوال الذى ينسج فيه التراكيب ، أو القالب الذى يفرغ فيه "[١]، ونظر إليه أحد المحدثين على أنه " طريقة الكتابة ، أو طريقة الإنشاء ، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها ؛ للتعبير بها عن المعاني، بقصد الإيضاح والتأثير " . [٢]

فالأسلوب بوجه عام يتكئ على الألفاظ ، وطريقة انتقائها ، والتأليف بينها طبقا للمعاني التي تعبر عنها ، وهذا يظهر العلاقة الوثيقة بين

(١) مقدمة ابن خلدون ــ تحقيق د. علي عبد الواحد وافي ــ ج ٣ ــ ص ١١٥٩ ــ دار نهضة مصر ــ الطبعة السابعة ٢٠١٤ م.
(٢) الأسلوب ــ أحمد الشايب ــ ص٤٤ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الأساليب والألفاظ ، ولذا فلا غرو أن تنعكس سمات حبات العقد وتنسحب عليه كله .

ولقد تبين من خلال الحديث السالف عن الألفاظ في (حكاية عاشقين) أنها تتسم في مجملها بالوضوح والسهولة ، والرقة والعذوبة ، والقرب والألفة ، بعيدا عن الغموض والتقعر ، ومن ثم فإن تلك السمات قد انعكست على الأساليب فجاءت موشاة بكساء الوضوح والفصاحة ، والسلامة اللغوية، وسلاسة التركيب مع تعبيرها عن التجربة الشعورية الممتدة في قصائد ومقطوعات الحكاية ، وترجمتها ما جاشت به عواطف الشاعر العاشق من معان ومضامين في مختلف أبعادها الفكرية .

أ ـ الخبر والإنشاء :

وإذا كان من الطبعي أن تتراوح الأساليب بين الخبر والإنشاء ، فقد زاوج مطران بينهما في التعبير عن مراحل تجربته وأبعادها ، وتصوير ما يجول بخاطره ، وإن غلب أحدهما على الآخر في موضع أو فكرة بالقصيدة تبعا لانفعال الشاعر ، وحالة عاطفته ، فإذا كان هادئ النفس مطمئنا اعتمد ــ غالبا ــ على الأساليب الخبرية ، وإن ثارت عاطفته ، وتململت نفسه ، وتقلب فكره ، ارتفع صوته ، وبرزت في تعبيراته الأساليب الإنشائية ــ غالبا ــ ويمكننا ملاحظة ذلك في قوله : ــ بحر الوافر–

وددت لو ان منطاداً خفيفا ... تحملنا إلى أوج العلاء
وأطلقنا فرحنا في عناق ... طوال الدهر في عرض الفضاء
كدفع الأم فرخيها فطارا ... لأول مرّة خلل الهواء
بأجنحة ضعاف شددتها ... ممالأة الصبابة والرجاء

فـهاما في العمـيق مـن المهـاوي وعـاما في السـحيق مـن الخـلاء
وذاقـا للهـوى سكـراً عجيبـا طـلاه مـن الطلاقـة و الضـياء
لـدن شمـس النهـار تسيل حبـا وتسقى الطير في كأس السماء[1]

فالأساليب في هذه الأبيات بينة فصيحة ، رقيقة عذبة ، تـتلاءم مـع الحالة النفسية لمبدعها الذى راح يجسد لقاءه محبوبتـه ، عنـدما شـاهدا منطادا يصعد في الهواء ، فتمنى أن يحمله المنطاد برفقة حبيبته إلـى أوج العلاء ، ويطير بهما مدى الدهر في عرض الفضاء ، وهما في نشوة روحية لا تعكر صفوهما عيون الرقباء ، فاعتمد ــ في هذه الأبيات ــ على الأسلوب الخبري الذي يتناسب مع وصف لقاءات العاشقين ، وقد غمرهمـا العشـق والهيام .

وحين صور مطران جلسة العاشقين يتناجيـان فـي ضـياء القمـر الساهر، ويتبادلان الحديث عن " أشعة رنتجن " ، تطالعنا الأساليب الخبريـة المتتالية التي تتناسب مع هذا الجو الحالم ، المفعم بالرومانسية والهدوء ... يقول : – بحر المتقارب ــ

جلسـت إلـى هنـد ذات مسـاء وآنسـنـا القمـر الساهـر
فحـدثتها عـن ضـياء عجيـب يسـر برؤيتـه الزائـر
لـه زرقـه الـماء لكنـه شـرار مـن النـار مطايـر
كمنتشـر مـن غـبار الزمـر د يحملـه لهـب ثائـر
كـأن بـه للعـيون عيـونا فكـل خفـيٍّ بـه ظاهـر
يرينـا الجسـوم أضـالع جفـت وزايـلها حسـنها الناضـر

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٨٦ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

هياكل محكمة شادها ... لطيف لما شاءه قادر
يرفرف فيها الفؤاد كما ... يرفرف في القفص الطائر[١]

وعندما يكابد الشاعر العاشق استبداد الولع والهيام ، ويشكو لفتاته آلامه وما يشعر به من وحدة ووحشة في بعدها عنه ، وصدها إياه ، وتمنيه لو كان قد مات قبل أن يراها ، ويخفق قلبه بحبها ويصطلي بنيران عشقها ، ويصعق كما يصعق الجبل الشامخ مما في جوانبه من زفير وضرام ، تأتي هذه المعاني في حوار شعري بديع ، تكثر فيه الأساليب الإنشائية التي تتناسب وقلق الشاعر ، وعذابه في هواه ... يقول : - بحر البسيط -

بيني وبينك يا سلمى مغاضبة ... أنت التي علمتني الحزن و الأرقا
وأنت علمت جفنيَّ الفراق فما ... تلاقيا طرفة إلا ليفترقا
وأنت أوقدت في جنبي الغرام فما ... رقدت إلا حسبت المهد محترقا
سلمى انظري الروضة الغناء ساكنة ... على نعيم وقلبي ذاكيا قلقا
من علّم الزهر أن يفتر لي كذبا ... وباكيَ السحب أن يندى وما صدقا ؟
ونائحَ الطير إيلامي بمنطقه ... كأنه شارح حالي بما نطقا ؟
ومائسَ الغصن إغرائي بعطفته ... فإن دنوت تسامى نافراً فرقا ؟
هذى ذنوبك يا سلمى جعلتِ بها ... بعد الصفاء حياتي مورداً رنقا
قالت : أليس غريم الشر جالبه ؟ ... فإن تعاتب فعاتب قلبك النزقا
فقلت : لا تظلمي هذا المصاب فقد ... ظن الهوى نعمة لكن أصاب شقا
هل من جناح على قلب رأى شركا ... من غزْل عينيك أن أغراه فاعتلقا ؟
فليتني مت لا عيني إليك رنت ... ولا فؤادي كما شاء الهوى خفقا

(١) السابق ، ص ١٩٣.

قالت : كأنك بعد الحب تبغضني ؟ فقلت : أعذر قالٍ شدَّ ما ومِقا
سلمى ألم تعلمي أن الضرام إذا ما شب في جوف طود راسخ صعقا ؟ (١)

ففي هذه المحاورة بين العاشقين تنوعت أساليب الإنشاء بين الأمر في قوله : (انظري الروضة الغناء ساكنة على نعيم) ، وقد خرج معناه إلى التعجب من نعيم الروضة بينما هو قلبه قلق محترق في حبها .

ومنها النهي في قوله : (لا تظلمي هذا المصاب ...) ، في مقام التماسه منها أن ترفق بقلبه ، فلا تهجره بعد أن تعلق بها ، وسقط فريسة في شرك عينيها .

وفي هذا الجدال المحتدم بين العاشقين كان الاستفهام حاضرا بقوة على رأس الأساليب الإنشائية ، ممثلا في قوله : (من علم الزهر .... ؟ ونائحَ الطير .... ؟ ومائسَ الغصن ... ؟ أليس غريم الشر جالبه ؟ هل من جناح على قلب رأى شركا ... ؟ كأنك بعد الحب تبغضني ؟ ألم تعلمي أن الضرام ... ؟) وكل ذلك يعكس شدة انفعال الشاعر ، وقلقه وثورته النفسية بعد أن كاد يقضي عليه صد من يهواها قلبه ويحبها .

ب ـ الحوار :

إذا كان الحوار تبادلا للحديث بين شخصين أو أكثر ، فإن (خليل مطران) قد استخدم هذا الأسلوب ـ أحيانا - في مجموعته (حكاية عاشقين) ، واستطاع توظيفه جيداً في تصوير بعض أحداثها ،

(١)ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ومن ذلك هذا الحوار الذى دار بين العاشقين في لقائهما بإحدى الأماسي حول " أشعة رنجتن " ، وفيه يقول : ــ بحر المتقارب ــ

جلست إلى هند ذات مساء ... وآنسنا القمر الساهر
فحدثتها عن ضياء عجيب ... يسر برؤيته الزائر
له زرقة الماء لكنه ... شرار من النار مطاير
.....
فقالت وقد رابها ما وصفت ... وأورى اللظى طرفها الفاتر :
أتبدو خبايا القلوب به ... شواخص ينظرها الناظر ؟
فيا حبذا هو نوراً يريك ... مثالك في القلب يا جائر
فقلت : أعيذ وفاءك مما ... يريب فإني إذن غادر

..... الأبيات[١]

ومنه – أيضا – هذا الحوار الذى دار بينه وبين محبوبته التي سماها " سلمى " ، وذلك في قصيدته " مغاضبة " [٢] التي سبق ذكرها قبل قليل في الأساليب الإنشائية .

ج ـ التكرار :

من الأساليب التي لجأ إليها الشاعر العاشق في رصد جوانب من تجربته الوجدانية (التكرار) ؛ إذ استخدمه في التعبير عن مدى السعادة والمعاناة مع الحبيبة ، فالسعادة كانت في تلك الأيام الجميلة التي قضاها برفقتها في الحدائق والبساتين وتحت أضواء القمر بعيدا عن أعين الرقباء

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٩٣ ــ ١٩٤ .
(٢) السابق ، ص ١٩٤ ــ ١٩٦ .

والعذال ، وأيضا تلك المعاناة التي كابدها بعد وفاتها ، والعيش على ذكراها، والإخلاص لها ، ومن نماذج التكرار في (حكاية عاشقين) قوله :

ـ بحر الكامل ـ

عـودي إلى الصفـو القديم فإنمـا ... هـو بالـودود أبـر والمـودود
عـودي نفـر كجـانيين إلى الربـى ... مستعصـمين برايـة الأملـود
عـودي ترجحـنا الأرائـك غضـة ... إذ نعقـد الأغصـان عقـد مهـود
طفـلان خفـفنا زوال همومـنا ... وتهـزنا الأطـيار بالتغريـد
عـودي فنقتطـف الأزاهـر غضـة ... غـراء حـلاها النـدى بعقـود
عـودي نطـر كفراشـتين تنقـلا ... ثملـين يـرقصـنا الصبا بنشـيد
عودي فننتهب الزمـان تضاحكا ... وتبـاكـيا بالـذكـر والتجديـد
متعـانقـين إذا انتبـهنا رابنـا ... ظـلان معتنقـان غـير بعيـد
عـودي فنجتنـب المجـامع رغبـة ... عـن كـاذب مـن إنسـها مفقـود [١]

وقوله أيضا في قصيدة أخرى : ـ بحر المنسرح ـ

يـا فـرحاً بالربيـع والزهـر ... والجـدول المسـتظل في الخمـر
يـا فـرحاً بالنسـيم يطربـني ... مـن غـير مـا مزهـر ولا وتـر
يـا فـرحاً بالعـبير يسكرنـي ... مـن كـل كـمّ مقـبل عطـر
يـا فـرحاً بالشـباب أحسـبه ... يـدوم حـتى نهـاية العمـر
يـا فـرحاً بالحيـاة أجمعـها ... بالنفـع منهـا معـا وبالضـرر [٢]

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ٢٠٠ .
(٢) السابق، ص ٢٠٧ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فتكرار أسلوبي الإنشاء (الأمر) في قوله : (عودي) ، و(النداء) في قوله : (يا فرحاً) على هذا النحو معبر عن عاطفة الشاعر وإحساسه في موقفين مختلفين من تجربته الوجدانية ، ففي الموقف الأول يستعطف محبوبته ألا تصدق كذب الوشاة عليه ، وأن تعود من سفرها بالنمسا إلى جواره بمصر ؛ لينعما بما كانا فيه من سعادة الحب ، فناسب ذلك هذا الإلحاح منه على عودتها من خلال تكرار أسلوب الأمر (عودي) .

وفى الموقف الآخر بشره أصدقاؤه بشفاء محبوبته بالنمسا من داء عضال كان قد أصابها ، فانطلق يعبر عن سعادته البالغة بهذه الأبيات التي كرر فيها أسلوب النداء (يا فرحا) – على هذا النحو – والذى خرج عن معناه الحقيقي أو الأصلي وهو طلب الإقبال إلى معنى آخر مجازى هو التعبير عن معانى السرور والفرح والنشوة التي سيطرت على العاشق في هذا الموقف .

د ـ توظيف التراث :

من يطالع شعر خليل مطران بعامة ، وقصائد ومقطوعات (حكاية عاشقين) بخاصة ، يظهر له بوضوح حرص الشاعر على توظيف التراث في شعره ، فالأساليب بألفاظها ومعانيها المستوحاة من القرآن الكريم والتاريخ كثيرة ، والإيحاءات والأفكار متعددة ، وقد يستغرب البعض على مطران ذلك في جانب القرآن الكريم لأنه نصراني ، بيد أن هذا الاستغراب يزول إذا عرفنا أنه اطلع في صباه على ديوان ابن الفارض ذلك الشاعر الإسلامي المتصوف ، وحفظ من قصائده بتشجيع من والده ، كما أنه لم يكن – وهو عربي يعيش بين المسلمين – بمعزل عن الثقافة الإسلامية المتاحة لكل من

أرادها من المسلمين وغيرهم ، ويدل على ذلك كتابه الذى يحمل عنوان " أخلاق وآداب من القرآن الكريم "[١]، بالإضافة إلى هذا الفيض من الألفاظ والمعاني الإسلامية والإنسانية – قطعا – في شعره بعامة ، وحكايته محل الدراسة بخاصة ، والتي يمكن تلمسها وتذوقها في سهولة ويسر .

ولا شك في أن توظيف الشاعر لأسماء متعددة ذات دلالات إسلامية وتاريخية في شعره لهو دليل على تمكنه من اللغة وطرائق استخداماتها ، وعلى قدرته الموسيقية التي تهيئ له أن يضرب على كل أوتار النغم ، وعلى أن أدوات الشعر لديه مهيأة ومعدة لأن يأخذ منها ما يتساوق وطبيعة التجربة الشعرية[٢]، فقد استخدم الشاعر العاشق أسماء مختلفة لمحبوبته في حكايتهما مثل : (هند – سلمى – ليلى ــ مارية) ؛ ليخفيها ، ويصرف عنها الظنون كما صرح بذلك في بدايتها ، كما اجتر الصورة الذهنية لاسمين بارزين تاريخيا في آفاق الحب العذري هما (جميل ــ قيس) ، وقد جعلهما من رسل الحب في سياق كشف منزلتها في قلبه ، وتفانيه في حبها ، وإخلاصه ووفائه لها ؛ إذ يقول : ــ بحر الطويل ــ

أحبك حتى لا سرور ولا منى ... ولا شمس إلا أن أراك ولا نجما
أحبك حتى ينكر الحب رسله ... جميلا وقيسا والأولى استشهدوا قدما
ولو لم تكن في الموت سلوى أخافها ... لأحببت حتى الموت فيك ولو ذُما [٣]

---

(١) ينظر: حياة مطران ، طاهر الطناحي ، ص٤١ وما بعدها ، وينظر: خليل مطران شاعر الأقطار العربية ، د/ جمال الدين الرمادي ، ص٥٠ ،٥١ .

(٢) ينظر: محمد هاشم رشيد ، أضواء على شعره وشاعريته ، د/ رزق محمد سيد أحمد داود ، ص١١١ ، ١١٢ ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٣م ــ مطبعة الأمانة ــ القاهرة .

(٣) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٩٢

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

كما يستدعي اسمي (آدم وحواء) في قصيدة تحمل الاسمين عنوانا لها ، وفيها يستلهم قصة أبوينا آدم وحواء وأكلهما من الشجرة ، ثم خروجهما من الجنة ، والتي وردت في بعض سور القرآن الكريم [١]، وقد نجح مطران في توظيف التناص القرآني بما يتلاءم وسياق القصيدة على نحو أضفى عليها رونقا جميلا ؛ إذ زعم الشاعر العاشق ــ آدم ــ أن الحب والهوى عوض للبشر عن كل نعيم الجنة ، وأن جمال محبوبته الفتان ــ حواء ــ هو النعيم كله ، ومن ثم فحواء لم تغو "آدم" ، وإنما أحيته بحبها وفتنتها ، فالحب في نظر العاشق هو صفو الحياة ونعيمها ... يقول : – بحر الكامل –

حواء هذى جنة أُنُفٌ ... أنا آدمٌ فيها وذا الثمر
فرنت إلى غصن به علقت ... تفاحة يشتاقها البصر
قالت : ألا أرقى فأقطفها ؟ ... فأجبت : إن العبد يأتمر
وأنلتها كتفي لأرفعها ... فسمت لتجنيها ولا حذر
ثم اقتسمناها كما اقتسمت ... قِدْمًا على ما قدَّر القدر
فتحول الجهل العهيد بنا ... علما وبان النفع والضرر
وإذا بنا متداريان وما ... غير الهوى ستر فنستتر
ذنب أتيناه مشاطرة ... والذنب شفع وهو ينشطر
لا بأس من فقد النعيم به ... وقد استعاضت بالهوى البشر
حواء فتنتك النعيم لنا ... لا الماء والأطيار والزهر
حواء ما أغويت آدم بل ... أحييته والصبوة العمر

(١) البقرة ٣٥ ــ ٣٨ ، الأعراف ١٩ ــ ٢٥ ، طه ١١٥ ــ ١٢٣ وغيرها .

من لم يحب فما الصفاء له صفو وما كدر به كد

ينجاب عن وجه الحياة كما تنجاب عن مرآتها الصور [١]

وفى قصيدة أخرى بعنوان (الأثر الباقي) يتأثر الشاعر العاشق بقول الله عز وجل في قصة سيدنا إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أزكى الصلاة وأتم التسليم : ﴿ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾[٢]، مظهرا حزنه على فقد حبيبته التي أضنى حبها قلبه الهائم ، واستحال عذابه فيها عذبا لا يؤذيه كالنار التي أُلْقِيَ فيها إبراهيم ، وكانت عليه بأمر الله تعالى بردا وسلاما وذلك في قوله : ــ بحر الكامل ــ

أسفى على حبي الذى أضنى فؤادي المستهام

فعذابه عذب ونا رأساه برد في سلام [٣]

هـ ـ الحكمة :

وفي خضم التعبير عن تجربته الوجدانية يلجأ مطران إلى بث بعض الأساليب الحكيمة المؤثرة والمعبرة عن حالته النفسية والعاطفية ، فعندما هجرته حبيبته ؛ إثر وشايات الوشاة بينهما نراه يقول معبرا عن يأسه ، وانقطاع آماله في ودها مع تصديقها تلك الوشايات : ــ بحر الطويل ــ

ولكنها الآمال سلعة خاسر وقد أصبحت سوق الوداد بوارا [٤]

وفي سياق شجوه ، وحزنه على فراقها يبين أن العاشق ذا القلب المرهف لا يشعر بالسعادة والنعيم ، وقيمة الحياة سوى مع محب ، ولو أساء إليه ، وهذا يظهر تهالكه وتفانيه في هواه .. يقول : – بحر البسيط –

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٩٠ ، ١٩١ .
(٢) سورة الأنبياء ، آية رقم ٦٩ .
(٣) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .
(٤) السابق ، ص ١٩٨ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

مـــا لأخـــي مهجـــة نعـــيم بلا حبيب ولـو أسـاء [١]

وبعد موت المحبوبة يرى أن للزمان سرا ، هو الأذى ، وقد أُدِّبَ به ، فالأذى والشرور أفضل ما يؤدب الإنسان .. يقول : – بحر الطويل–

أراني زماني سره وهو الأذى فأدبني والشر خير مؤدبا [٢]

وفي قصيدة أخرى يبين أن فَقْدَ الحبيب يعني فقدان الذات فـي تيـه الحياة .. يقول : ــ بحر الكامل ــ

منْ كان مفقود الحبيـ ـب فلا شباب ولا ربيعْ [٣]

ومع وضوح الأساليب في شعر (حكايـة عاشـقين) وفصـاحتها ، وبعدها عن الغرابة والغموض ، فقد تسـربت إليهـا ــ نـادرا – النثريـة التقريرية والرتابة التي تقربها من العامية ، وهذا مـا نجـده فـي تعبيـر (مطران) عن فرحته بنبأ شفاء محبوبته من داء عضال أصابها ، إذ يقول : – بحر المنسرح –

قـد كـذب الطـب والطـبيب ألا إنهمـا علـتان للبشـر
مشعـوذ طـائـف بشعـوذة أحسـر فـي عقـله وفى البصـر
يحمـل بلـورة ليـدرك مـا نـدركـه مـن مجـرد النظـر
الحمـد لله أنـها سلـمت وأفلـتت من مخـالب الخطـر [٤]

(١) السابق ، ص ٢٠٥ .
(٢) السابق ، ص ٢١٩ .
(٣) السابق ، ص ٢٢١ .
(٤) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ٢٠٨ .

ثانيا ـ الصورة الشعرية :

تحظى الصورة بأهمية كبيرة بين عناصر التجربة الشعرية ؛ فعن طريقها يتمكن الشاعر من تقريب البعيد ، وتوضيح الغامض الخفي ، وتجسيم المعنويات ، وتشخيص الجمادات ، ونقل عاطفته وخواطره إلى المتلقي ، بل وإشراكه معه في أحاسيسه ومشاعره ، ومن ثم فهي تمثل مقدرته الفنية على الخلق والابتكار والتأثير .

والصورة الشعرية في أقرب معانيها " رسم قوامة الكلمات " (١)، وتعرف بأنها " التعبير الذى ينقل شعور الشاعر وأفكاره معتمدا على التجسيد لا على التصريح ، ولا على التجريد ، كما تشرك معه عواطف المتلقين ، وتشخص لهم ما يريد نقله إليهم، فهي إذن تصوير لعاطفة الشاعر وتجربته ، وتصوير لفكرته التي انفعل بها " (٢).

وهى ــ أي الصورة الشعرية ــ " تقوم على عنصرين أساسيين هما: " الخيال " الذى يمكن الشاعر من عرض البواعث التي جعلته محبا أو متحمسا أو مبغضا أمام المتلقي ؛ ليشاركه نفس المشاعر والأحاسيس ، و" العبارة " التي تجسم هذه المشاعر وتنقل الفكرة والعاطفة في صورة دقيقة رائعة " (٣).

---

(١) الصورة الشعرية ــ تأليف/ سيي ــ دي لويس ــ ص٢١ ، مطبعة وزارة الثقافة والإعلام العراقية ١٩٨٢م .

(٢) أضواء على الأدب الحديث ــ د/ أحمد الحوفي ــ ص١٧٧ ، الطبعة الأولى ١٩٨١م – دار المعارف – القاهرة .

(٣) تطور القصيدة الغنائية في الشعر العربي الحديث من (١٨٨١-١٩٣٨م) ــ د/ حسن أحمد الكبير ــ ص٣٣٩ بتصرف – طبعة دار الفكر العربي ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وتجدر الإشارة إلى أن الصورة الشعرية تكون أكثر وضوحا وتأثيرا في المتلقي إذا تشكلت من خلال الصور البيانية التي يؤلفها الخيال من تشبيه واستعارة وكناية ، فإذا استقلت واحدة منها في إبراز عاطفة الشاعر وأحاسيسه كانت الصورة الشعرية صورة جزئية ، وإذا تضافرت تلك الصور البيانية ، وتبع بعضها بعضا في اتساع ونمو حتى اكتمل من مجموعها صورة كبرى أو لوحة فنية تامة كانت صورة كلية (١).

وفى ضوء هذه الرؤية الفنية ستكون دراستنا للصورة بقسميها ــ الجزئية والكلية ــ في شعر (حكاية عاشقين) ، وذلك ــ بمشيئة الله تعالى ــ في السطور القادمة .

أ ـ الصورة الجزئية :

من العسير على من يطالع قصائد ومقطوعات (حكاية عاشقين) أن يعثر على واحدة منها خالية من التصوير الخيالي الجزئي الذى يتمثل في الصور البيانية ، ومن ثم فإن نماذج هذا النوع ــ أعنى الصورة الجزئية ــ في هذه الحكاية من الكثرة بمكان بحيث يصعب على الدارس حصرها ، وقد تمكن مطران من توظيفها في تصوير مضمون تجربته الوجدانية ، فمن نماذج التشبيه قوله مصورا جمال محبوبته إذا لبست ثيابها البيضاء منها والسوداء : ــ بحر الطويل ــ

إذا ما ترديت البياض لتنجلي فكالشمس يجلوها الصباح لتسطعا

(١) ينظر: اتجاهات وآراء في النقد الحديث ــ د/ محمد نايل ــ ص٨٩ مطبعة العاصمة ــ القاهرة ــ د.ت .

وإن تـؤثري سـود المطـارف ملبسـا فكالـبدر يخـتار اللـيالي مطلعـا [١]

فهي كالشمس إذا ما لبست ثيابها البيضاء ، وكالبدر إذا مـا لبسـت ثيابها السوداء ، وتلك صورة قديمة ، ولكن الشاعر بخياله المبدع وظفهـا على هذا النحو غير المألوف .

ومن ذلك أيضا تشبيهه صنيع الوجد به ، وصرعته إياه بالنار المتقدة المشتعلة تارة ، كما في قوله : – بحر البسيط –

ضجيع مهد لظى الحمى يساورني صريع وجْدٍ كوقد النار مشتعل [٢]

وتارة أخرى يصور نفسه مع معاناته تباريح الهوى ، وصد الحبيبـة بالنِّضْو [٣] الهائم على وجهه في القفار ، وهي من صوره القليلة القديمة ، إذ يقول : – بحر الوافر–

إلى كم جوبيَ العمرا كنِضْو جائب قفرا ؟ [٤]

ومن قبيل التصوير الطريف الذى زاوج فيه الشـاعر العاشـق بـين التشبيه والاستعارة قوله باكيا محبوبته بعد موتها : – بحر الكامل ــ

كـنا كغصـنى دوحـة نبـتا بل زهرتـي غصـن تعـانقتا

بـل حبتيـن بزهـرة نمـتا وتسـاقتا لـما تعاشقـتا

نـار الغـرام مع الندى العذب [٥]

---

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٨٦ .

(٢) السابق ، ج١ ، ص ١٨٧ .

(٣) النِّضو : البعير المهزول ، أو المهزول من جميع الدواب ، اللسـان ص ٤٤٥٧ ، مـادة " نضا " .

(٤) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٨٧ .

(٥) السابق ، ج١ ، ص ٢١٠ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فالشاعر يبكى معشوقته بعاطفة قوية صادقة ، ويصور رباط الحب الذى كان يجمعهما ، فيجعلهما كالغصنين النابتين في الشجرة العظيمة بل كزهرتي غصن تعانقتا بل أقرب من ذلك كحبتين بزهرة واحدة نمتا معاً ، وتعاشقتا حتى ارتوتا بنار الغرام مع الندى العذب .

أما عن الصور الشعرية التي رسمها الشاعر من خلال الاستعارة ، فكثير منها قام على الاستعارة المكنية ، وهي " تلك التي يطوى فيها المشبه به طياً عميقاً فلا تجد له أثراً سوى صفة مثبتة للمشبه على تخيل أنهما سواء " (١)؛ وما كثرتها إلا لأنها " تعد لوناً من أبلغ ألوان الاستعارات الذى يلعب دوراً في تجسيم المعاني وفى خلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية ، والانفعالات الوجدانية ، وتهب لهذه الأشياء كلها عواطف آدمية ، وخلجات إنسانية تشارك بها الآدميين " (٢) .

ولقد وظف شاعرنا هذا اللون الاستعاري توظيفاً دقيقاً يفي بمكنونات نفسه، ويعكس شعوره وإحساسه في المواقف المختلفة خلال تجربته الوجدانية، والأمثلة على هذا اللون من التصوير الخيالي كثيرة في (حكايته)؛ إذ يقف عند أمر معنوي أو غير عاقل لمخاطبته أو مناجاته ، ومنها قوله في مطلع قصيدته (تذكار) مناجيا دار محبوبته ؛ إثر سفرها واجدة عليه بعد وشايات وصلتها عنه : ــ بحر الطويل –

أيا دار من أهوى فديتك دارا غدت بعدنا للعاشقين مزارا (٣)

(١) أساليب البيان والصورة القرآنية ، دراسة تحليلية لعلم البيان ، د/ محمد إبراهيم شادي ، ص٢٨٥ – الطبعة الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م – دار والي الإسلامية – المنصورة.
(٢) مباحث في طرق علم البيان ، د/ رفعت إسماعيل السوداني ، ص٣٢١. ٢٠٠٠ –٢٠٠١م.
(٣) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٩٦.

ولا يخفى أن وقوف الشعراء بديار محبوباتهم ، ومناجاتها ، والبكاء عندها من عادات الشعراء التي عرفتها القصيدة العربية منذ أعصر أدبنا الأولى .

ومن ذلك أيضا تلك المناجاة الرقيقة بين الشاعر العاشق والطائر على عادة الرومانسيين حين يهربون من الناس والواقع ، ويرتمون في أحضان الطبيعة ومفرداتها ، يبثونها آلامهم وشكواهم ، وعتاباتهم ومعاناتهم مع محبوباتهم ، وقد تجسدت هذه المعاني في قصيدة (عتاب الشاعر والطائر) التي يقول في مطلعها : – بحر البسيط –

يا أيها الطائر المغنى بلا نثير ولا نظيم
من لي بشدو طليق فن كشدوك المطرب الرخيم [1]

ومن ذلك أيضاً ما نجده في قصيدة (المنديل) ، حين وجد منديلاً لحبيبته الراحلة بين ملابسه ، أبلاه مرور الأعوام عليه ، ولم يسلم منه إلا الموضع الذى طرز عليه حرفان مشتبكان من اسمها ، فشخص هذا المنديل وراح يناجيه ، ويتوسل إليه أن يشنف أذنيه بحكايات حبهما في الأيام الخوالي فقال : – بحر الطويل–

أعد أيها المنديل ذكراً محببا وأنطق به الطيب الذى فيك مطربا
وأطنب بما تحكيه عنها فإنه إذا ساء إطناب حببتك مطنبا
فذلك ذكر الحب أنت تعيده بل العمر أشهى ما يكون وأعذبا
وما بك من نشر ففي القلب مثله طواه الهوى قدما وما زال طيبا
وما زلت يا منديل " ليلى " ملازمي تنشقني الذكرى نسيما مطيبا

(١) السابق ، ص ٢٠١ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أصابك نـاب قـارض من فـم البلـى إلى موضـع فـيه اسـمها فتجـنبا
وغـال فـؤادي البـين إلا بقيـة قضى الحب أن أحيا بها فأعذبا [١]

وفوق تشخيص المنديل ومناجاته لا تخفى الاستعارة المكنية في البيتين الأخيرين حيث تخيل الشاعر (البلى) ، و(البين) حيوانين مفترسين ، الأول له أنياب قرض بها المنديل ، والآخر أصاب قلبه في مقتل، وهو تصوير يدل على أن الشاعر بالرغم من طول الأمد بعد وفاة الحبيبة إلا أنه ظل وفيّاً لها ، حيا بحبها وذكراها .

ومن قبيل هذا اللون الخيالي أيضا قول العاشق في قصيدته (تكذيب نبأ) معبرا عن اغتباطه وشدة حبوره بعد أن أُخبر بنجاة محبوبته من داء عضال ألمَّ بها : ــ بحر المنسرح ــ

الحمد لله أنـها سلمت وأفلتت من مخـالب الخطـر [٢]

فالشاعر هنا يحمد الله تعالى على سلامة محبوبته وشفائها من الداء القاتل الذى داهمها ، وقد صاغ ذلك في ثوب بياني بديع اعتمد على الاستعارة المكنية حيث شخص الداء أو الخطر ، وتخيله حيوانا مفترساً له مخالب يفتك بها ، ثم حذف المشبه به (الحيوان المفترس) ورمز إليه بإحدى صفاته وهي (المخالب) ، ولاشك في أنها صورة رائقة مؤثرة في النفس بإثارة نوازع التفكير والتخيل فيها من خلال الاستعارة المكنية.

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ٢١٨ ــ ٢٢٠ .
(٢) السابق ، ص ٢٠٨ .

ونلاحظ أن (مطران) في (حكاية عاشقين) قد خلع صفة الكذب على الأشياء المعنوية وغير العاقلة ، فالزهر يكذب في افتراره لـــه ، والســـحب تكذب في بكائها من أجله ، وذلك في قوله : ــ بحر البسيط ــ

من علّم الزهر أن يفتر لي كذبـا ؟ وباكى السحب أن يندى وما صدقا ؟ [١]

كذلك الطب يكذب ، وذلك في قوله : ــ بحر المنسرح ــ

قد كذب الطب والطبيب ألا إنها علتان للبشـر [٢]

وهكذا فإن الاستعارة المكنية تقوم على " التشخيص والتجسيد : (أي) نسبة صفات البشر إلى أفكار مجردة أو إلى أشياء لا تتصف بالحياة " [٣].

أما عن الصورة الشعرية التي رسمها الشاعر من خـــلال الاســـتعارة التصريحية – " وهى تلك التي يصرح فيها بالمشبه به بعد حلول المشبه فيه وامتزاجه به " [٤] – فقليلة الورود في شعر (حكاية عاشقين) بالنسبة إلى الاستعارة المكنية الكثيرة ، ومن أمثلة هذا اللون الخيالي قوله مصورا مـــا حلّ بجسده من آثار الحمى ، وما أصاب قلبه جراء شوقه إليهـــا ، وعجـــزه عن لقائها ؛ بسبب مرضه ، وذلك في قصيدة (اعتذار) : ــ بحر الطويل ــ

ففي الجسم نار يلذع القلب وقدها وفي القلب نار مثلها تلذع الجسما [٥]

---

(١) السابق ، ص ١٩٥ .

(٢) السابق ، ص ٢٠٨ .

(٣) معجم مصطلحات الأدب ، مجدى وهبـــة ، ص٣٩٧ ، ٣٩٨ ــ مكتبـــة لبنـــان – بيـــروت ١٩٧٤م.

(٤) أساليب البيان والصورة القرآنية – دراسة تحليلية لعلم البيان ، د. محمد إبراهيم شـــادي ، ص٣٠٤.

(٥) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٩١.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فالحمى نار مشتعلة بجسم وقلب الشاعر العاشق ، وكذا شوقه إلي محبوبته مع حيلولة مرضه دون رؤيتها نار متقدة بقلبه قد أصابت جسمه ، وهي صورة جميلة استطاع الشاعر من خلالها الربط بين سخونة جسمه بسبب الحمى ، وبين شدة شوقه ولهفته للقاء حبيبته ؛ لتقبل اعتذاره عن عدم لقائها ، وإخلاف موعده معها .

ومنها أيضا هاتان الصورتان اللتان جعل فيهما محبوبته وردة وجنة استحالتا جمرة تلذع جسده ، ونارا تحرق فؤاده بعد أن صدقت كذب الوشاة، وفارقته دون عتب عليه ؛ إذ يقول : ــ بحر الطويل ــ

فيا وردتي ماذا أحالك جمرة ؟ ويا جنتي ماذا أصارك نارا ؟ (١)

وفي سياق تصديقها الوشاة ، وبعدها عنه ، واستعطافه إياها ألا تصدقهم جعلها وردة يرتاح إليها ، وإن عانى في حبها ؛ إذ يقول : ــ بحر الكامل ــ

يا وردة يرتاح جانيها وإن دميت يداه بشوكها المدود

كذب الوشاة بما ادعوه وإنني أوفى الأنام بذمتي وعهودي (٢)

وبعد موتها يجتر ذكراها ، فيصورها شمسا تشرق على رمسها بنورها ، وتظلم حياته بغروبها عن دنياه ، فيقول : ــ بحر الطويل ــ

فيا عهد سعدي حين كنتِ بجانبي ويا عمرا أبقيت للحزن والثكل

ويا شمس قبر صار مطلع نورها ومغرب صبح قد تحجب بالرمل

(١) السابق ، ص ١٩٧ .
(٢) السابق ، ص ٢٠٠ .

عليك سلام العاشق المدنف الذي يسير إلى قبر الحبيب على مهل [١]

ومن الصور الكنائية قوله في قصيدة (مغاضبة) معبرا عن سهده وحزنه وأرقه : ــ بحر البسيط ــ

وأنت علمت جفنيَّ الفراق فما تلاقيا طرفة إلا ليفترقا

وأنت أوقدت في جنبي الغرام فما رقدت إلا حسبت المهد محترقا [٢]

ولا تخفى الاستعارة المكنية في تصوير الغرام بنار أوقدتها المحبوبة في جنب العاشق ، فقضت مضجعه حتى حسب أنها أحرقت فراشه .

كما كنى الشاعر العاشق عن نفسه بـ (آدم) ، وعن محبوبته بـ (حواء) في قصيدته التي حملت عنوان (آدم وحواء)[٣]، وقد عدد أسماء المحبوبة بين (هند – سلمى – ليلى ــ مارية) ؛ كناية عنها ؛ ليخفيها ، ويصرف عنها الظنون ، على نحو ما صرح به في مستهل حكاية العاشقين .

وفى نهاية الحديث عن الصورة الجزئية في (حكاية عاشقين) أود أن أسترعي انتباه القارئ الكريم إلى بعض الصور الجزئية التي آخذها على الشاعر ؛ لمخالفتها العقائد الدينية السليمة ، إذ منها ما هو في الاعتراض على القضاء والقدر ، وهو ما يتنافى مع الإيمان بالله الذى لا يقضي إلا بالحق مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ... وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ ﴾ [٤]،

---

(١) السابق ، ص ٢١٤ .

(٢) السابق ، ص ١٩٤ .

(٣) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١١٧ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وقوله أيضا :﴿ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ... ﴿٢٠﴾ ﴾ (١)، وقول رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه في الحديث الطويل الذى سأله فيه جبريل عليه السلام قال : " فَأَخْبِرنِي عَنِ الإِيمَانِ . قال صلى الله عليه وسلم : أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ وتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قال : صَدَقْتَ ... الحديث " (٢)، ومنها ما هو في سب الدهر الذى يؤذى المولى ــ عز وجل – مصداقاً لما رواه أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قَال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُؤْذِينِي ابْنُ آَدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ ، وَأَنَا الدَّهْرُ ، بِيَدَيَّ الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ " (٣).

من ذلك قول (مطران) معترضا على القضاء واصفا الدهر بالجور أو الظلم في قصيدة (تذكار) : ــ بحر الطويل ــ

هجرتك لا كُره الحياة وإنما بذاك قضى دهري عليَّ وجارا (٤)

ويقول معترضاً على القدر متهما له بالسطو والإغارة في قصيدة (مثال في مرآة) : ــ بحر الكامل ــ

تمت سعادتنا على قدر فسطت عليها غيرة القدر (٥)

ويقول في سب الدهر بتصويره مسيئا آثماً ، وذلك في قصيدته (روعة نبأ) : ــ بحر الطويل ــ

---

(١) سورة غافر آية رقم ٢٠ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١، ص١٥٧، المطبعة المصرية ومكتبتها – ربيع الثاني ١٣٤٩هـ .
(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ــ للحافظ ابن حجر العسقلاني ، ج٨ ، ص٥٧٤ ــ المطبعة السلفية ومكتبتها ــ د . ت .
(٤) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٩٨ .
(٥) السابق ، ص ٢١٠ .

فإن ساءنا دهر أثيم بفرقة فزعنا إلى قبر رحيم فقربا [١]

وفى موضع آخر يسبه بإسناد منقصة الكذب إليه فيقول في قصيدة (مثال في مرآة) : ــ بحر الكامل ــ

الدهر يكذب حيثما صدقا [٢]

ولا ريب في أن مثل هذه الصور لا يوافق عليها ولا يرتضيها مؤمن بالله ــ عز وجل ــ سليم العقيدة ، ولا تمت في معناها إلى أي شريعة بصلة.

ب ـ الصورة الكلية :

نأتي الآن إلى الحديث عن الصورة الكلية وهي التي تمثل مشهدا حيا خارجيا أو جوا نفسيا داخليا ، وهذا المشهد أو ذاك الجو يؤلف من صور جزئية أغلبها خيالي تتآزر جميعها مع الكلمات الدالة على اللون والصوت والحركة ، والعبارات المشعة الموحية لرسم وتشكيل الصورة الفنية المتكاملة ، أو ما يسمى بـ (الصورة الكلية) [٣].

ومن يتأمل قصائد (حكاية عاشقين) يقف على كثير من لوحاتها الفنية التامة الجوانب التي تعكس مقدرة (مطران) على بناء الصور الفنية المتآلفة ، ورسم اللوحات الشعورية المتدفقة في صورها الجزئية ، المتعانقة في ألوانها وظلالها وإيحاءاتها ، ومن هذه الصور الكلية البديعة

(١) السابق ، ص ٢٠٧ .

(٢) السابق ، ص ٢١٠ .

(٣) ينظر: تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن العشرين إلى أوائل الحرب الكبرى الثانية ــ د/ أحمد هيكل ــ ص٣٣٧ ــ الطبعة الرابعة ١٩٨٣م ــ دار المعارف ــ مصر .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

قوله في مستهل قصيدة (آدم وحواء) راسما لوحة فنية رائعة لمكان لقاء العاشقين ذات نهار : – بحر الكامل –

حملت مظلات لنا الشجر ... وأعد مختبأً لنا الخَمُر
ودعا النسيم العاشقين إلى ... روض يقر بحسنه النظر
فيه العماد الخضر ينظمها ... فن بديع الوحي مبتكر
بإزائها عمد مذهبة ... من حيث نور الشمس ينحدر
متناسق ما بينها حجرا ... نعم العماد ونعمت الحجر
تجرى سواقيه فعابسة ... فيها الظلال ويضحك الحجر
وكأنما نسماته كلم ... وكأنما نفحاته فكر
وكأن هنداً في تخطرها ... سلطانة رفعت لها سرر[1]

فكل ما في هذه اللوحة الفنية يوحي بسعادة العاشقين ؛ فقد حشد الشاعر جل معالم جمال الطبيعة ، وجمع عناصر متنوعة يصعب وجودها في أية روضة واقعية ، وأنشأ للقاء العاشقين من تلك العناصر روضة شعرية ، يجتمعان فيها ، كأنها جنة آدم وحواء ، تقر بحسنها العيون ، حيث خمائل الأشجار المتكاثفة ذات الأعمدة الخضراء الزمردية ، والصفراء المذهبة بنور الشمس ، وهواء النسيم اللين ، والسواقي المتحركة ، والظلال المتشابكة ، والأحجار الضاحكة ، وقد اعتمد (مطران) في رسم هذه الصورة الكلية على بعض الصور الحقيقية مثل : (روض يقر بحسنه النظر ــ فيه العماد الخضر ــ متناسق ما بينها ...) مع صور الخيال الجزئية المتدفقة كالتشبيه مثل : (كأنما نسماته كلم ــ كأنما نفحاته فكرــ كأن هنداً في تخطرها...)،

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٩٠ .

والتشخيص الذى تقوم عليه الاستعارة المكنية في (جعْل الشجر يحمل مظلات للعاشقين ، ويعد لهما مكانا آمنا بعيدا عن الرقباء ــ دعوة النسيم العاشقين للقاء في روضه البديع ــ إبداع الفن وابتكاره ــ الظلال العابسة ــ الحجر الضاحك) ، وكلها صور تعكس جمال المكان ، وروعة زمان لقاء العاشقين ، وقد تآزرت ظلال اللون والحركة والصوت في تشكيل تلك الصورة الكلية ، فنجد اللون في (حسنه ــ الخضر ــ مذهبة ــ نور الشمس ــ الظلال) ، والحركة في (حملت ــ أعد ــ ينظمها ــ ينحدر ــ تجري ــ تخطرها ــ رفعت) ، والصوت في (دعا النسيم ... ــ عابسة ــ يضحك ــ كلم) ، وهكذا يتضح لنا كيف وظف الشاعر كل أدواته الفنية في رسم ملامح هذه الصورة الكلية تعبيرا عن مكان لقاء العاشقين ، وسعادتهما به .

ومن هذه الصور الكلية الرائعة قوله في قصيدة (اعتذار) راسما لوحة فنية أخرى للقائهما ذات ليلة بالقرب من نهر النيل الخالد :

ــ بحر الطويل ــ

وليل به طفنا الجزيرة كلما ... تذكرته لا تدمع العين بل تدمى

كأن غبارا أحدثته جيادنا ... كسا الكوكب الدري من كدر سقما

كأن الدجى سَوَّرْنَنا بسرادق ... وسمرنه بالشهب حبسا لمن ضما

نسير بقرب النيل وهو مخضب ... على أنه كالنَّصل في كبد الظَّلْما

ويرنو إلينا من بعيد بعينه ... سراج قريب ثم يغمضها لؤما

وتبدي لنا الأغصان شبه تحية ... وتستقبل الأرواحُ أوجهَنا لثما

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

كأن لنا الدنيا وما في سمائها وما دونها مُلْكا وأن لنا الحُكما [١]

فبعد أن قدم الشاعر العاشق اعتذاره لمحبوبته ؛ إذ أقعدته الحمى عن لقائها ، أخذ يعلل نفسه بعد أن استبد به الشوق إليها بتذكر ليلة هانئة يبدو من وصفها أنها شاتية ؛ حيث مثار النقع قد ملأ الآفاق ، فأدمى العيون ، وأطبق الدجى على الكون ، فحجب ضوء القمر ، وتناثرت الشهب من فوقهما ، وهما يسيران بالقرب من النيل الذي شق كبد الظلام رامقا إياهما ببصره ، والأغصان والأرواح تُحَييهما ، وكأنهما من سعادتهما قد ملكا الدنيا أجمعها ، سماء وأرضا وما حويا ، وقد اعتمد (مطران) في رسم هذه اللوحة الشعرية على بعض الصور الحقيقية مثل : (وليل به طفنا الجزيرة ــ كلما تذكرته لا تدمع العين ــ نسير بقرب النيل) مع الصور الخيالية المتدفقة من تشبيه مثل : (كأن غبارا ... ــ كأن الدجى ... ــ على أنه كالنَّصل في كبد الظَّلْما ... ــ كأن لنا الدنيا ...)، واستعارة تصريحية في (جعل دموع العين دما)، والتشخيص الذى تقوم عليه الاستعارة المكنية في (جعل النيل إنسانا مخضبا ، له عين يرقب بها العاشقين تارة ، ويتغافل عنهما ويغمضها تارة أخرى ــ تحية الأغصان، واستقبال الأرواح لهما) ، وكلها صور تعبر عن سعادة العاشقين بلقائهما في تلك الليلة ؛ لأمنهما أعين الرقباء ، وفرح الطبيعة بهما .

وقد رأينا تآلف كل من اللون والحركة والصوت في تشكيل تلك اللوحة الفنية ، فنجد اللون في (ليل ــ تدمى ــ الكوكب الدري ــ كدر ــ الدجى ــ الشهب ــ مخضب ــ الظلما ــ سراج)، والحركة في (طفنا ــ

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٩٢ .

جيادنا ــ كسا ــ سورننا ــ ضما ــ نسير ــ لثما ــ)، والصوت صادرا من حركة الجياد وإثارتها الغبار ، وتثبيت السرادق بمسامير من الشهب وأصواتها ، وتحية الأغصان ، وهكذا يتضح لنا كيف تآزرت كل الأدوات الفنية وتضافرت لإخراج هذه اللوحة الرائعة المعبرة عن لقاء العاشقين وسعادتهما فيه .

ومن أمثلة هذا اللون من الصورة الكلية عند (مطران) قوله في قصيدة (كان) التي كانت خاتمة (حكاية عاشقين) : ــ بحر المجتث –

سررت في العمر مرهْ ... وكنت أنت المسرهْ
كانت حياتيَ روضا ... وكنت في الروض نضرهْ
وكان غصنا شبابي ... وكنت في الغصن زهرهْ
وكان فكري سماء ... وكان حبك فجرهْ
وكان حسنك يوحي ... إلى يراعيَ سرهْ
وكان لحظك يهدي ... إلى بيانيَ سحرهْ
وكان ثغرك يملي ... على سماعيَ درهْ
وكان طيبك يهدي ... إلى ثنائيَ نشرهْ
وكنت للروح روحا ... وكنت للعين قرهْ
قد "كان" هذا ولكن ... مضى وأخلف حسرهْ
فبت لا شيء إلا ... حالين : ذكرى وعبرهْ (١)

ففي هذه اللوحة الحزينة تظهر عاطفة (مطران) تجاه محبوبته التي عاش بعد رحيلها عن الدنيا طيلة حياته لا تمر به ذكراها إلا رثاها بلوحة

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ٢٢٢ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

دامعة من فنه كتلك التي بين أيدينا ، وقد استعان في رسمها بعنقود مؤثر من صور الخيال الجزئية لاسيما التشبيه والاستعارة المكنية التي تشخص الجمادات ، وتنفخ الحياة في المعنويات ، فمحبوبته هي مسرته الوحيدة في دنياه ، وفى وجودها كانت حياته كالروض ، وكانت هي نضرة هذه الروض، كما كان شبابه كالغصن وكانت هي زهرة هذا الغصن ، وكان فكره سماء وكان حبها فجر هذا الفكر ، كما كان حسنها يوحي إلى يراعه فنه ، ولحظها يهدى إلى بيانه سحره ، كما كان ثغرها يملى الدرر الثمينة والبليغة على سمعه ، وكان طيبها يفوح بمدحه وينشره ، لقد كانت روحاً لروحه ، وقرة لعينه ، لكنها رحلت ، وتركته وحيداً بين ذكراها وحزنه عليها .

فنحن إذن أمام لوحة فنية مؤثرة ومعبرة عن حب وإخلاص عظيمين ، تآزرت تلك الصور الجزئية وألفتها ، لتنقل عاطفة الشاعر الحزينة في صدق إلى المتلقين ، وتشركهم معه في أحاسيسه ومشاعره .

وهكذا يبدو من خلال ما سبق من نماذج للصورة الشعرية بنوعيها ــ والتي هي غيض من فيض في شعر (حكاية عاشقين) ــ نجاح مطران في توظيفها بدقة في رصد مشاعره وانفعالاته الوجدانية المتنوعة ، وأنها قد تميزت ــ في الغالب ــ بالجدة والابتكار ، وهو الأمر الذى كشفت عنه الدراسة ، ودللت عليه عبر بعض تلك النماذج .

ثالثا ـ الإيقاع الموسيقي :

لاشك في أن الموسيقى من الأبعاد الفنية المهمة في عملية الإبداع الشعرى ، فهي التي تميز الشعر من النثر الفني ، ومن ثم فإنه " لا يوجد شعر بدون موسيقى يتجلى فيها جوهره وجوه الزاخر بالنغم ، موسيقى تؤثر في أعصاب السامعين ومشاعرهم بقواها الخفية التي تشبه قوى السحر ، قوى تنشر في نفوسهم موجات من الانفعال يحسون بتناغمهم معها ، وكأنما تعيد فيهم نسقاً كان قد اضطرب واختل نظامه ..... فالموسيقى إذن لبّ الشعر وعماده الذى لا تقوم له قائمة بدونه " (١) .

وإلى جانب ذلك فإن الموسيقى تهب الشعر مذاقاً خاصاً " وتجعله مصقولاً مهذباً تصل معانيه إلى القلب بمجرد سماعه ، وكل ذلك مما يثير منا الرغبة في قراءته وإنشاده ، وترديد هذا الإنشاد مراراً وتكراراً..... فليس الشعر في الحقيقة إلا كلاماً موسيقياً تنفعل لموسيقاه النفوس ، وتتأثر بها القلوب" (٢).

وبذلك نفهم مدى تأثير موسيقى الشعر في نفوسنا ، وندرك أنه بمقدار التكامل في الرحيق الموسيقى ، وما يزخر به من انتظام النغم يكون تأثيره فيها قوة وضعفاً ، فهو يقوى حين يستكمل الشعر النسب الموسيقية مقيسة أدق قياس ..... أما إذا اختلت تلك النسب ، فإن الرحيق الموسيقى

---

(١) فصول في الشعر ونقده ، د/ شوقي ضيف ، ص٢٨ ، ٢٩ ، بتصرف ، الطبعة الثانية ١٩٧٧م – دار المعارف – مصر.

(٢) موسيقى الشعر ، د/ إبراهيم أنيس ، ص١٦ ، ١٧ ، الطبعة الخامسة ١٩٨١م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

في الشعر يكون ضعيفاً ، ومن ثم فإن إحساسنا بمتاعه ، وتأثرنا به يكون ضعيفاً بضعفه [١] .

وينبغي " ألا ننسى أن هذا الرحيق الموسيقي المصفى الذى يقدمه لنا فنّ الشعر لا يكمن في أوزانه وتلحين كلامه وأنغامه فحسب ، بل يكمن أيضاً في انتخاب ألفاظه الحية الرشيقة " [٢].

وعلى ذلك فإن موسيقى الشعر تتشكل من خلال مظهرين أساسيين تتمثل فيهما ولا توجد إلا بهما ، أولهما ما يعرف بالموسيقى الداخلية ، والآخر يعرف بالموسيقى الخارجية ، وفى السطور القادمة سوف يحاول الباحث – إن شاء الله تعالى – الكشف عن قسمات هذا البعد الفني بمظهريه في شعر (حكاية عاشقين) من خلال بعض النماذج على النحو التالي .

أ ـ الموسيقى الداخلية :

الموسيقى الداخلية في الشعر " تنبع من اختيار الشاعر لكلماته ، وما بينها من تلاؤم في الحروف والحركات ، وكأن للشاعر أذناً داخلية وراء أذنه الظاهرة تسمع كل شكلة وكل حرف بوضوح تام ، وبهذه الموسيقى الخفية يتفاضل الشعراء " [٣].

وتأثير هذه الموسيقى الداخلية في النفوس قد يحدث من خلال ظاهرة التصريع ، ويقصد به " أن يستوى آخر جزء في صدر البيت ، وآخر جزء

---

(١) ينظر : فصول في الشعر ونقده ، د/ شوقي ضيف ، ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، بتصرف.
(٢) المرجع السابق ، ص٣٠٣.
(٣) في النقد الأدبي ، د/ شوقي ضيف ، ص٩٧ – الطبعة الخامسة – ١٩٧٧م – دار المعارف – مصر .

في عجزة وزناً ورويا وإعراباً " [١]، وهو أحد المؤثرات الموسيقية التي استعان بها شاعرنا؛ حرصاً منه على تزيين مطالع شعر (حكاية عاشقين)، وإكسابه مزيداً من الإيقاع والنغم المؤثر في نفوس المتلقين ، ففي التصريع لون من ألوان " المناسبة بين مقاطع الكلام يجعل له وقعاً موسيقياً طيبا في النفس ، ولذلك ولع به الشعراء ، وأغرموا بتزيين مطالع أشعارهم بهذه النغمة الموسيقية الأخاذة ". [٢]

وباستقراء شعر حكاية الخليل نجد أنه نظم نتفها (ما تشكل من بيتين) ، ومقطوعاتها (ما زاد على بيتين إلى ستة) دون تصريع ، وذلك كقوله في بدايتها : – بحر الرمل –

أفتدى من لسعتها نحلة تطلب وردا [٣]

وقوله : – بحر السريع –

مر لها الحسن على كونه حلوا وقد أغرى بها النحلا [٤]

وقوله أيضا في مطلع إحدى قطع الحكاية : – بحر البسيط –

ضجيع مهد لظى الحمى يساورني صريع وجْدٍ كوقد النار مشتعل [٥]

وقوله أيضا في مطلع مقطوعة ثانية : – بحر الخفيف –

---

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب ، د/ أحمد أحمد بدوى ، ص٣٠٧ .

(٢) دراسات لغوية صوتية بلاغية ، د/ عبد الجواد محمد طبق ، ص١٥٣ ، الطبعة الثانية ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

(٣) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٨٥ .

(٤) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٨٥ .

(٥) السابق ، ص ١٨٧ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

قيل غضبى فهل أجازى وغيرى مثلما تعلمين صد وأذنب [١]

كما نظم مطران بعض قصائد الحكاية (ما تشكل من سبعة أبيات فأكثر) دون تصريع ، مثل قوله في مطلع قصيدة (صعدة منطاد) :

- بحر الوافر -

وودت لو ان منطاداً خفيفا تحملنا إلى أوج العلاء [٢]

وقوله أيضاً في مطلع قصيدة (أشعة رنتجن) : - بحر المتقارب -

جلست إلى هند ذات مساء وآنسنا القمر الساهر [٣]

وقوله أيضا في مطلع قصيدة (مغاضبة) : - بحر البسيط -

بيني وبينك يا سلمى مغاضبة أنت التي علمتني الحزن و الأرقا [٤]

وقوله أيضا في مطلع قصيدة (إلى حبيب ميت من مائت بدائه) :

- بحر الطويل -

عفاء لهذا العيش ما لي وما له وقد ساء عندي ما يُمر و ما يُحلى [٥]

بينما نظم (مطران) جلَّ قصائد حكايته مصرعا ، ومنه قوله في استهلال قصيدته (شكوى) : - بحر الوافر -

---

(١) ذاته ، ص ١٨٨ .
(٢) ذاته ، ص ١٨٧ .
(٣) ذاته ، ص ١٩٣ .
(٤) ذاته ، ص ١٩٤ .
(٥) ذاته ، ص ٢١٣ .

إلى كم جوبي العمرَا كنضو جائب قفرَا [١]

وقوله مستهلا قصيدته (ليلة سعد) : – بحر الوافر –

قوامك لا يعادله قوامُ ومن أوصافك الحسن التمامُ [٢]

وقوله في مطلع قصيدة (آدم وحواء) : – بحر الكامل –

حملت مظلات لنا الشجرُ وأعد مختبأً لنا الخَمُرُ [٣]

وقوله في مطلع قصيدة (اعتذار) : – بحر الطويل –

لك الأمر إن أنصفتني فكفى غنمَا وإن تظلمي فالحب شاء ولا إثمَا [٤]

وهكذا جاء أغلب قصائد (حكاية عاشقين) مزدانا بموسيقى التصريع بما له من إيقاع آسر ، ونغم بديع، يمتع الآذان، ويستهوى نفوس المتلقين.

ومن بين الظواهر الموسيقية أيضا – والتي تحظى بقدر كبير في شعر الحكاية – التكرار ، سواء أكان تكرار حروف أم تكرار مفردات وجمل، فمن تكرار الحروف قول (مطران) في خماسيته (مثال في مرآة) :
– بحر الكامل –

ماتت وكل ضاحك جذل ما للورى ولموت من جهلوا
لا قلب يبكيها ولا مقل بل نبلها واللطف والأمل
وشبابها وطهارة القلب [٥]

---

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٨٧ .
(٢) السابق ، ص ١٨٩ .
(٣) ذاته ، ص ١٩٠ .
(٤) ذاته ، ص ١٩١ .
(٥) ذاته ، ص ٢١١ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وقوله في قصيدته (دمعة على فقيدة) : – بحر الكامل –

عاد الربيع وحبذا عود الربيع إلى الربوعْ
عود تسر به الخلا ئق وهو عيد للجميعْ [١]

فلا شك في أن تكرار ألف المد واللام في المخمس ، وحرف العين في البيتين من شأنه أن يثري الموسيقى الداخلية بما يمتع الأسماع ، ويسر النفوس من ناحية ، ويومئ إلى رقة إحساس العاشق وعاطفته الحزينة بعد فقد الحبيبة من ناحية أخرى .

ومن تكرار المفردات تكرار كلمة (فَقْد) في قوله : – بحر الكامل –

ففقدت من كانت تقربها عين المتيم في تقربها
والنفس تشقى في تغيبها فتظل حيرى في ترقبها
محبوسة في مقلة الصب
فقد النفوس عذوبة الأمل فقد العيون النور وهو جلي
فقد العزيز العز لم يطل فقد الفتى الدنيا على عجل
إذ جاءها ضيفا على الرحب
بل فقد محرور الفؤاد ظمي قطرا يبل أوار مضطرم
بل فقد مختلج من الألم آماله بنهاية السقم
وعزاءه الموكول بالطب [٢]

فتكرار كلمة (فَقْد) في هذه المخمس ، وكذا تكرار الفعل (كان) في قصيدته[٣] المعنونة بذات الفعل ، والتي ختم بها الشاعر حكاية العاشقين ،

(١) ذاته ، ص ٢٢١ .
(٢) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ٢١١ .
(٣) ذاته ، ص ٢٢٢ .

ليدل على حسرة العاشق ، وحزنه وتألمه لموت حبيبته ، وأنه لم يعرف السعادة والهناء إلا في حياتها .

ومن تكرار الجمل ما سبق عرضه في الحديث عن ظاهرة التكرار الأسلوبية ، ويمكن أن نضيف إليها هنا تكرار مفردات يشكل كل منها جملة أو أسلوبا ، مثل تكرار لفظة (أحبك) وهي جملة فعلية ، وذلك في قوله : ــ بحر الطويل ــ

أحبك حتى لا سرور ولا منى ولا شمس إلا أن أراك ولا نجما

أحبك حتى ينكر الحب رسله جميلا وقيسا والأولى استشهدوا قدما

ولو لم تكن في الموت سلوى أخافها لأحببت حتى الموت فيك ولو ذُما [١]

وكذا تكرار لفظة (حواء) وهي تشكل أسلوب نداء في قوله : – بحر الكامل –

حواءُ هذى جنة أُنُفٌ أنا آدمٌ فيها وذا الثمر

حواءُ فتنتك النعيم لنا لا الماء والأطيار والزهر

حواءُ ما أغويت آدم بل أحييته والصبوة العمر [٢]

فالتكرار على هذا النحو في تلك الأبيات يؤكد للمتلقي منزلة المحبوبة في نفس العاشق ، من خلال إلحاحه في التصريح بحبها (أحبك) ، ثم بخلعه عليها هالة من التقدير وربما التقديس في اختيار (حواء) اسما لها، ومناداتها به ، فهي ليست كسائر الفتيات ، وإنما تفوقهن بتلك المكانة ؛ إذ

(١) ذاته ، ص ١٩٢ .

(٢) ذاته ، ص ١٩٠ ، ١٩١ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

لا توجد بينهن من تشبهها أو تقترب من مضاهاتها في شيء ، كل ذلك يجعل المتلقي يترقب مثل هذا النوع من التكرار الذي يروق لسمعه ، ويستميل قلبه .

وجمال التكرار – موسيقيا وبلاغيا – لا يحس إلا إذا كان متلائما في موضعه مع بقية الألفاظ ، متناسبا مع المعنى ، أما إذا تكلفه الشاعر وتعمده فإنه يفقد بذلك جماله وطلاوته ، وبالتبعية تأثيره في نفوس المتلقين ، وهذا ما وقع فيه مطران في قصيدته (روعة نبأ) ، وذلك في قوله : ــ بحر الطويل ــ

فبادرني بالنصح قال لي : اتئد ... ولا تجعلن العقل للجهل مركبا
فإنك إن وافيتها هاج داءها ... لقاؤك فاستعصى وأصبح أعطبا
وإنك إن ترحم شبابك فالذي ... يراه لك الوافون أن تتجنبا
وإنك مرجو العزائم والنهى ... لترقى بها في ذروة المجد منصبا
وإنك إن عرضت نفسك موتم ... عفاة وأطفالا وأمك والأبا [(١)]

فكما هو ملاحظ أن تكرار مقطع (وإنك) في هذه الأبيات مفتعل للوزن ، والاستطراد في المعنى ، و زيادة الأبيات ؛ حيث القوالب اللفظية والموسيقية الجاهزة التي تساعد على ذلك ، ومن ثم كان على حساب الإيقاع الموسيقى الداخلي ؛ إذ ألقى بظلاله عليه فجاء رتيباً مملولا ، وحسب شاعرنا أن تعد عليه هذه النماذج الضعيفة للتكرار ، فهذا مما يحسب له لا عليه.

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ٢٠٦ .

وتأثير هذه الموسيقى الداخلية في النفوس قد يحدث عن طريق المحسنات البديعية التي هي وسيلة من وسائل التأثير في العبارة الأدبية ، لما تضفيه على الكلام من حسن التناسق وجمال الأداء ، مما يزيد في الاستمتاع به ، والارتياح إليه ، طالما جاءت عفو الخاطر بلا تكلف أو تصنع أو إسراف ، وإلا كانت دليلاً على ضعف الأديب لا على قوته ، وعلى مفارقته الطبع إلى التكلف ، وإشارة إلى عجزه وقصوره عن التعبير المرسل الطليق[١]، وقد نوع مطران في استخدام تلك المحسنات لفظية كانت أو معنوية، فوردت في ثنايا شعر (حكاية عاشقين) مغلفة بالطبع بعيدة عن التكلف والتصنع ، فأضفت على فنه حسناً في التناسق ، وجمالاً في الأداء ، وعذوبة في الإيقاع .

فمن المحسنات اللفظية التي لون بها شاعرنا النغم الموسيقي داخل شعر الحكاية نجد الجناس بين (أنكى/ أنكب)، في قوله : ــ بحر الطويل ــ

فعالجني حتى إذا ما أقرني شجاني بأنكى ثم راع بأنكبا [٢]

ومن نماذجه أيضا المجانسة بين (ينصبنا / يعصبنا) ، (المَلَكان / المَلِكان) ، (تقرُّ بها / تقرُّبِها) في قوله : ــ بحر الكامل ــ

كنا وكان الحب ينصبنا ملكين تاج السعد يعصبنا [٣]

(١) ينظر : في ميزان النقد الأدبي ، د/ طه أبو كريشة ، ص٣٤ ، ٣٥ .
(٢) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ٢٠٦ .
(٣) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ٢٠٩ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وقوله :

فكأنما المَلَكان ما نعما وكأنما المِلكان ما حكما [١]

وقوله : ففقدت من كانت تقرُّ بها عين المتيم في تقرُّبِها [٢]

ومن المحسنات البديعية اللفظية أيضا توازي الألفاظ والجمل ، أو الترصيع ؛ حيث يبدو التوازن والتعادل بين الكلمات في الجمل والأشطار، وهذا التوازن وذاك التعادل يبعثان في النفس ارتياحاً ، وفى السمع توافقاً صوتياً ، ورنيناً مؤتلفاً ، وجرساً موسيقياً عذباً تعشقه الآذان . [٣]، ومن أمثلة هذا التوازن ، وذاك التعادل بين الكلمات في الجمل والأشطار في شعر حكاية العاشقين قول (مطران) في قصيدة (شغف وظمأ) : ــ بحر البسيط ــ

ضجيع مهد لظى الحمى يساورني صريع وجْدٍ كوقد النار مشتعل [٤]

وقوله أيضا في قصيدة (روعة نبأ) : ــ بحر الطويل ــ

ولا أقض مذكوراً ذكائي وقد عفا ولا أمض مفقوداً مناري وقد خبا [٥]

وقوله أيضا في قصيدة (مثال في مرآة) : ــ بحر الكامل ــ

فكأنما المَلَكان ما نعما وكأنما المِلكان ما حكما

وكأنما النوران ما ابتسما أعجب برؤيا واهم وهما

---

(١) ذاته ، ص ٢١٠ .

(٢) ذاته ، ص ٢١١ .

(٣) ينظر : شعر الحنين بين البارودي وشوقي ، د/ عبد الكريم فراج ، ص١٢٢ ، ١٢٣ ، مطبعة الأمانة ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .

(٤) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٨٧ .

(٥) السابق ، ص ٢٠٧ .

تقضي بلا بدء إلى غب

وكأنما الروحان ما اعتلقا وكأنما الإلفان ما اتفقا

وكأنما الغصنان ما اعتنقا الدهر يكذب حيثما صدقا

ما أقرب الماضي إلى الكذب [١]

فالترصيع وهو " توازن الألفاظ مع توافق الأعجاز أو تقاربها "[٢] واضح ، والتوازي جلي بين معظم المفردات والجمل في هذه النماذج ، من مثل : (ضجيع مهد / صريع وجد ، ولا أقض مذكوراً ذكائي وقد عفا / ولا أمض مفقوداً مناري وقد خبا ، فكأنما المَلَكان ما نعما / وكأنما المَلِكان ما حكما / وكأنما النوران ما ابتسما ، وكأنما الروحان ما اعتلقا / وكأنما الإلفان ما اتفقا / وكأنما الغصنان ما اعتنقا) ، ففي هذه الأمثلة يتجلى التقسيم الإيقاعي في التعادل بين الجمل والأشطار ، والتوازي بين المفردات التي هي لبناتها والتي أحسن الشاعر انتقاءها ، فعبرت عن معانيه التي يريدها في انسجام لطيف ، وإيقاع آسر ، وتناغم موسيقى بديع ، وكل ذلك مما يؤثر في نفوس المتلقين ، ويدفعهم إلى متابعة الشاعر والتفاعل معه في تجربته الوجدانية .

ومن المحسنات البديعية التي تتعلق بالمعنى ، واحتفل بها الشاعر نجد الطباق ، ومن أمثلته المطابقة بين (قريب / مبتعد ، قرب / هجرا) ،

---

(١) ذاته ، ص ٢١٠ .

(٢) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، السيد أحمد الهاشمي ــ تحقيق : يوسف الصميلي ، ص ٣٣٢ ، المكتبة العصرية ــ صيدا ــ بيروت ١٤٣٧ هـ ــ ٢٠١٦ م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

(الجهل / علما ، النفع / الضرر) ، (عسر / يسارا ، دجى / نهارا) ، في قوله : ــ بحر الوافر ــ

قريب الدار مبتعد وكم قرب حكى هجرا [١]

وقوله : ــ بحر الكامل ــ

فتحول الجهل العهيد بنا علما وبان النفع والضرر [٢]

وقوله : ــ بحر الطويل ــ

فيا منية للقلب كنت بقربها أرى كل عسر في الزمان يسارا

بروحيَ أفدي وردة قد حفظتها لذكراك أسقيها الدموع حرارا

وأحيي بها آثار حبك شاكيا وأسمع نجواها دجى ونهارا [٣]

ومن تلك المحسنات أيضا المقابلة ، ومن نماذجها مقابلة مطران بين معنى هذين البيتين اللذين جاءا في سياق وصف جمال المحبوبة في الثياب البيضاء والسوداء ، وفيهما يقول : ــ بحر الطويل ــ

إذا ما ترديت البياض لتنجلي فكالشمس يجلوها الصباح لتسطعا

وإن تؤثري سود المطارف ملبسا فكالبدر يختار الليالي مطلعا [٤]

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٨٧ .
(٢) ذاته ، ص ١٩٠ .
(٣) ذاته ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ .
(٤) ذاته ، ص ١٨٦ .

فالتقابل واضح في (البياض ، الشمس ، الصباح / سود ، البدر ، الليالي) ، ومن هذا القبيل أيضا المقابلة في (ساءنا بالفصل / أسعد بالوصل) في قوله : ــ بحر الطويل ــ

فقدتك بالداء الذي هو قاتلي فإن ساءنا بالفصل أسعد بالوصل [١]

ومن المحسنات البديعية المعنوية ــ التي وردت بقلة في شعر (حكاية عاشقين) ــ التورية ، ومن نماذجها قوله : ــ بحر السريع ــ

مَرَّ لها الحسن على كونه حلوا وقد أغرى بها النحلا [٢]

ففي الشطر الأول من هذا البيت تورية في الفعل (مَرَّ) ؛ إذ له معنيان ، أحدهما قريب ظاهر غير مقصود ، وهو (من المرور والاجتياز)، والآخر بعيد خفي مقصود ، وهو (من المرارة نقيض الحلاوة) ، وقد ذكر الشاعر في الشطر الثاني ما يبين هذا المعنى ، وهو قوله (حلوا) ، ومن ثم تسمى تورية مبينة . [٣]

وبالإضافة إلى تأثير التصريع ، والتكرار والمحسنات البديعية بنوعيها في إحداث النغم الداخلي في شعر حكاية مطران ، فإن تنويع الصوت على حسب موقع الكلمة في أساليبه الخبرية – بما تحويه من إثبات ونفي ، وتقرير وإنكار – وكذا الإنشائية بألوانها – من استفهام وتعجب ، وأمر

(١) ذاته ، ص ٢١٣ .
(٢) ذاته ، ص ١٨٥ .
(٣) ينظر : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، السيد أحمد الهاشمي ـــ تحقيق : يوسف الصميلي ، ص ٣٠٠ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ونداء ، ونهي ودعاء وما إليها – يعد من ألوان النغم الداخلي الذى يعلق بالنفوس ، ويأسر الألباب. (١)

ومن أمثلة هذا التنويع الصوتي للكلمات في شعر (حكاية عاشقين) قول مطران : ــ بحر الوافر ــ

قوامك لا يعادله قوام ... ومن أوصافك الحسن التمام
وفى عينيك سحر بابلي ... فلا يدرى أماء أم ضرام ؟
وفى الأهداب ضعف وانكسار ... فكيف تميتنا منها السهام ؟
وفيك عبوسة تحلو لدينا ... فكيف إذا جلاك لنا ابتسام ؟
وفيك لكل عين كل معنى ... تباح له النفوس ولا يرام
محاسن دونها ثارات قوم ... فما لفتى سوى النظر اغتنام
كتمت هواك دهراً لا لخوف ... وما أنا من يروعه الحمام
ولكنى أخاف عليك منهم ... ولو أودى بمهجتيَ الغرام (٢)

ففي هذه الأبيات نلاحظ تنويع مطران في الإيقاع الصوتي للكلمات داخل أساليبه الخبرية والإنشائية المتجانسة ، فمن الأساليب الخبرية المثبتة قوله (قوامك لا يعادله قوام – وفى عينيك سحر بابلي – كتمت هواك دهراً) ومن الأساليب المنفية قوله (فما لفتى سوى النظر اغتنام – وما أنا من يروعه الحمام) ومن الأساليب الإنشائية ، الاستفهام في قوله : (أماء أم ضرام ؟ – فكيف تميتنا منها السهام ؟ – فكيف إذا جلاك لنا

(١) ينظر: النقد الأدبي الحديث ، د/ محمد غنيمي هلال ، ص ٤٤٠ ، وكذلك : في ميزان النقد الأدبي ، د/ طه أبو كريشة ، ص٣٤.
(٢) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٨٩ .

ابتسام ؟) ، كما جاءت بعض الكلمات على وزن واحد وصيغة واحدة وتلك الكلمات هي (التمام – الغرام) ، و(السهام – الحمام) ، و(ابتسام – اغتنام) كما تخللت هذه الأبيات كلمات رقيقة تتلاءم بموسيقاها الندية وتجربة الشاعر الذاتية الرومانتيكية من مثل (الحسن – سحر – هواك – مهجتي – الغرام) ، فضلا عن المحسنات البديعية من تصريع في البيت الأول ، وتكرار لـ (كاف الخطاب) التي تعود على المحبوبة ، وأداة الاستفهام (كيف) ، والجر بـ (في) ، وطباق بين (عبوسة وابتسام) مما أسهم في توفير نغم داخلي رقيق تعشقه الآذان ، وتستهويه الأفئدة ، وترتاح إليه النفوس .

على أن هذه الموسيقى الداخلية (الخفية) لا يدركها المتلقي ، ولا يستمتع بأثرها إلا إذا كان ذا أذن حساسة لا يخفى عليها الهمس ، بل تلمسه وتحسه بمثل الدرجة التي تدرك بها جلجلة الألفاظ ورنينها . (١)

ب ـ الموسيقى الخارجية :

يتجلى هذا اللون – أعنى الموسيقى الخارجية للشعر – في الوزن والقافية ، أما الوزن فـ " منذ وجد الشعر وجدت معه الأوزان ، فالشاعر لا ينطق بكلامه في لغة عادية ، وإنما ينطقه موزوناً ".(٢)

و(خليل مطران) في نظم شعر (حكاية عاشقين) لم يخرج على الأوزان أو البحور العروضية التي نظم عليها الشعراء العرب منذ الجاهلية ، وأرسى قواعدها الخليل بن أحمد الفراهيدي في أوائل العصر العباسي بل

(١) ينظر : في ميزان النقد الأدبي ، د/ طه أبو كريشة ، ص٣٤.
(٢) في النقد الأدبي ، د/ شوقي ضيف ، ص٩٩ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

التزم بها التزاما كاملا ، وباستقراء شعر الحكاية ــ كما جاء في الديوان ــ تبين أنه نُظم في سبع عشرة قصيدة مشتملة على ستة وسبعين وثلاثمائة بيت ، وثلاث نتف مجموع أبياتها ستة ، وقطعتين في أحد عشر بيتا ، بالإضافة إلى قصيدة واحدة من (المربع) مكونة من واحد وثلاثين مربعا ، وقصيدة واحدة من (المخمس) مكونة من واحد وعشرين مخمسا ، وتبين أن الشاعر قد استنفد في نظمه معظم أوزان البحور العروضية ، وكان بحر الطويل أكثرها استعمالا (ست مرات) ، وهو يعد من أطول البحور وأحفلها بالجلال والرصانة والعمق ، كما يحتاج الناظم منه إلى ثقافة لغوية ضخمة ، وثروة من الأخيلة والمعاني واسعة لا تتفق لكل شاعر ، ومن ثم فالنظم منه مذلة للشاعر الضحل القليل الحظ من الأساليب العربية . (١)

ثم يليه بحر الكامل (خمس مرات) وما ذلك إلا لأنه ــ أي بحر الكامل – قد أصبح في عصرنا الحديث متنزهاً للشعراء ، وهو أيضا " البحر الذى يستمتع به جمهور السامعين من محبى الشعر ، فيطرقه الآن كل الناظمين ، الشعراء منهم والمتشاعرون ، فإذا وصف القدماء الرجز بأنه مطية الشعراء يمكننا الآن ونحن مطمئنون أن نصف الكامل بأنه مطية شعرائنا المحدثين " . (٢)

(١) ينظر : دراسات في النص الشعرى ، د/ عبده بدوى ، ص١١٦ ، الطبعة الثانية ١٩٨٤م – دار الرفاعي – الرياض ، وينظر أيضا : الشعراء وإنشاد الشعر ، د/ على الجندي ، ص١٠٢ ، ط دار المعارف – مصر ١٩٩٩م.

(٢) موسيقى الشعر ، د/ إبراهيم أنيس ، ص٢٠٨.

ثم الوافر والبسيط (ثلاث مرات لكليهما) ، ثم الرمل (في مرتين)، ثم بحور السريع والخفيف والمتقارب والمنسرح والمجتث (مرة واحـــدة) لكل منها .

الضرورات الشعرية في شعر (حكاية عاشقين) :

من أجل أن يحافظ شاعرنا على عذوبة النغم الخارجي الـــذى تؤديـــه الأوزان في شعر حكايته اضطر إلى الاستفادة من بعض الضرورات الشعرية المقبولة ، ومنها :

- **قصر الممدود** : ومن أمثلة ذلك قوله : ــ بحر الطويل ــ

نسير بقرب النيل وهو مخضب على أنه كالنصل في كبد الظلما (١)

وقوله : ــ بحر البسيط ــ

فقلت : لا تظلمي هذا المصاب فقد ظن الهوى نعمة لكن أصاب شقا (٢)

وقوله : ــ بحر الطويل ــ

سأمضي إليها وليصبني نصيبها ولا يرثني صحب ولا يبك أقربا (٣)

فقد اضطر مطران إلى قصر الأسماء الممدودة (الظلماء ــ شـــقاء ــ أقرباء) في هذه الأبيات ، وتلك ضرورة شعرية يلجأ إليها الشعراء محافظـــة على الوزن ، وعذوبة النغم الموسيقي الخارجي الناشئ عنه.

---

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٩٢ .
(٢) ذاته ، ص ١٩٥ .
(٣) ذاته ، ص ٢٠٧ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

- **تنوين الممنوع من الصرف**: ومن أمثلة تلك الضرورة قوله: ــ بحر الكامل ــ

حــــواء هـــذى جنـــة أنـــف أنـــــا آدمٌ فيـــــها وذا الثمـــــر[١]

فقد نون (آدم) الممنوع من الصرف للعلمية والعجمة أو وزن الفعل اضطرارا ؛ للمحافظة على استقامة وزن البيت وسلامته ، وكمال موسـيقاه الخارجية .

- **وصل همزة القطع** : ومن أمثلة هذه الضرورة قوله : ــ بحر الوافر ــ

وودت لـــو ان منطـــاداً خفيفـــا تحملـــنا إلـــى أوج العـــلاء[٢]

فقد اضطر الشاعر إلى وصل همزة القطع في الحرف (أن) ؛ حفاظاً على وزن البيت ، وإيقاعه الخارجي .

وهذه كلها من الضرورات الجائزة بل المقبولة في الشعر ــ بخاصـة ــ حفاظا على سلامة الوزن ، وعذوبة الموسيقى الخارجية . [٣]

هذا فيما يخص الوزن ، وأما عن القافية فهي تتمثـل فـي " عـدة أصوات تتكرر في أواخر الأشطر أو الأبيات من القصيدة ، وتكررهـا هـذا يكون جزءا هاما من الموسيقى الشعرية ، فهي بمثابة الفواصل الموسـيقية يتوقع السامع ترددها ، ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطـرق الآذان فـي فترات زمنية منتظمة ، وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسـمى بالوزن ... وأقل ما يمكن أن يراعى تكرره (من تلك الأصوات) ، وما يجـب

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٩٠ .
(٢) ذاته ، ص ١٨٦ .
(٣) ينظر : فن الموسيقى في الشعر العربي ، د/ محمود على السمان ، ص٢٧٩-٢٨١ طبعة سنة ١٩٧٨م.

أن يشترك في كل قوافي القصيدة ذلك الصوت الذى تبنى عليه الأبيات، ويسميه أهل العروض بالروي ، فلا يكون الشعر مقفى إلا بأن يشتمل على ذلك الصوت المكرر في أواخر الأبيات " . (١)

وحروف الهجاء التي تقع رويا تقسم أربعة أقسام حسب نسبة شيوعها في الشعر العربي ، وهي :

(أ) حروف تجيء رويا بكثرة وهي : الراء – اللام – الميم – النون – الباء – الدال – السين – العين.

(ب)حروف متوسطة الشيوع وهي : القاف – الكاف – الهمزة – الحاء – الفاء – الياء – الجيم.

(ج)حروف قليلة الشيوع وهي : الضاد – الطاء – الهاء – التاء – الصاد – الثاء.

(د) حروف نادرة في مجيئها رويا وهي : الذال – الغين ــ الخاء – الشين – الزاي – الظاء – الواو.

ولا تعزى كثرة الشيوع أو قلتها ــ كما ذكر د/ إبراهيم أنيس ــ إلى ثقل في الأصوات أو خفة بقدر ما تعزى إلى نسبة ورودها في أواخر كلمات اللغة . (٢)

وباستقراء مجموعتنا الشعرية يتبين أن الصوت الموسيقى الأهم في قوافيها وهو الروى ــ الذى تبنى عليه القصيدة أو القطعة أو النتفة ــ

(١) موسيقى الشعر ــ د/ إبراهيم أنيس ، ص٢٤٦ ، ٢٤٧ .
(٢) ينظر: السابق ــ ص٢٤٨ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

جاء من تلك الحروف التي شاع استعمالها رويا في شعرنا العربي ، باستثناء قصيدتين فقط ، جاء الروي فيهما من الحروف المتوسطة الشيوع، فجاءت (الهمزة) رويا لقصيدة (صعدة منطاد)، ومطلعها : ــ بحر الوافر ــ

وودت لو ان منطاداً خفيفا تحملنا إلى أوج العلاء [١]

بينما جاءت (القاف) رويا لقصيدة (مغاضبة)، ومطلعها: ــ بحر البسيط ــ

بيني وبينك يا "سلمى" مغاضبة أنتِ التي علمتْني الحزن والأرقا [٢]

إلى جانب قصيدة واحدة فقط جاء رويها من الحروف القليلة الشيوع، إذ جاءت (الهاء) رويا لقصيدة (كان) التي ختم بها (مطران) حكاية العاشقين ، ومطلعها قوله : ــ بحر المجتث ــ

سررتُ في العمر مرَّهْ وكنتِ أنتِ المسرَّهْ [٣]

وإذا كان مطرانُ في جُلّ شعر حكايته قد جاءت قوافيه مطلقة – أي رويها متحرك بفتح أو كسر أو ضم – ، فقد نظم ثلاث قصائد بقافية مقيدة ، حيث جاء الروي (ميما ساكنة) في قصيدة (الأثر الباقي) ، ومطلعها : ــ بحر الكامل ــ

يا قلب مات بك الغرامْ فعلى بقيتك السلامْ [٤]

(١) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٨٦ .
(٢) ذاته ، ص ١٩٤ .
(٣) ذاته ، ص ٢٢٢ .
(٤) ذاته ، ص ٢١٦ .

وجاء الروي (عينا ساكنة) في قصيدة (دمعة على فقيدة) ، ومطلعها : ــ بحر الكامل ــ

عاد الربيع وحبذا عود الربيع إلى الربوعْ [١]

وجاء الروي (هاء ساكنة) في قصيدته (كان)[٢] التي سبقت الإشارة إليها ، فضلا عن مقطوعة واحدة بقافية مقيدة ، حيث جاء رويها (باء ساكنة) ، وعنوانها (أعتاب) ، وأولها : ــ بحر الخفيف ــ

قيل غضبى فهل أجازى وغيري مثلما تعلمين صدَّ وأذنبْ [٣]

وقد جاء شعر (حكاية عاشقين) بقافية موحدة باستثناء دفقتين وجدانيتين نوَّع مطران في قافيتهما ، فأفرغ إحداهما في قوالب المربع ، وهو " ذلك الشعر الذى يقسم فيه الشاعر قصيدته إلى أقسام ، يتضمن كل قسم منها أربعة أشطر ، ويراعي الشاعر في هذه الأشطر الأربعة نظاما ما للقافية ... (كأن يكون) الشطر الأول والثالث في قافية ، والثاني والرابع في قافية أخرى " [٤]، وهذه المربعات جاءت تحت عنوان (عتاب الشاعر والطائر)[٥]، وأولها قوله : ــ بحر البسيط ــ

يا أيها الطائر المغنى بلا نثير ولا نظيم
من لي بشدو طليق فنٍّ كشدوك المطرب الرخيم

ومنها قوله :

---

(١) ذاته ، ص ٢٢١ .
(٢) ذاته ، ص ٢٢٢ .
(٣) ذاته ، ص ١٨٨ .
(٤) موسيقى الشعر ، د/ إبراهيم أنيس ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤.
(٥) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ٢٠١ : ٢٠٥ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أحببـــت حسنـــاء ذات دلٍّ تهـــوى المـــنى فـــي جـــمالها
لـــو أبصـــر الراهـــب المصـــلى طلعتهـــا عـــاد والهـــا
رأت غرامـــي فعاهدتنـــي علـــى الهـــوى الطـــاهر المبـــاحِ
ثـــم جفتنـــي وباعدتنـــي بغـــير إثـــم ولا جنـــاحِ
فأعتمـــت بعـــدها حياتـــي مـــن ذلـــك الطالـــع السعـــيدِ
وصـــرت أمشـــى إلى ممـــاتي فـــي ظلـــمة البائـــس الطريـــدِ

بينما أفرغ (مطران) دفقته الشعورية الأخرى في قوالب (المخمـــس) الموسيقية ، وفيه يتم تقسيم القصيدة إلى وحدات بحيث تتكون كل وحدة من خمسة أشطر ، أربعة منها بقافية والخامس بقافية أخرى هي التي تلتزم في كل شطر خامس [١]، وقد جاءت هذه المخمسات تحت عنـــوان (مثـــال فـــي مرآة) [٢] ، وأولها قوله : ــ بحر الكامل ــ

مـــن بالمنـــون لوالـــه صـــب ذاكـــي الأضـــالع مقلـــق الجـــنب
ليـــت الرزيئـــة فيـــك أودت بـــي فنجـــوت مـــن ألمـــى ومـــن كربـــى
وفزعت من نفسى إلى ربى
يـــا منيـــتي مـــا كنت بالجـــزع في حـــادث أيـــام كـــنت معـــي
والآن بـــت مخلـــد الفـــزع ميتـــا بـــلا أمـــل ولا طمـــع
حيا بذكر معاهد الحب
كـــنا وكـــان الحـــب يجعلـــنا مَلَكـــين فـــي فـــلك يمثلـــنا
روحـــين فـــي روح يظللـــنا نـــوريـــن فـــي نـــور يكللـــنا

(١) ينظر : فن الموسيقى في الشعر العربي ، د/ محمود على السمان ، ص٢٤٩.
(٢) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ٢٠٩ : ٢١٢ .

متقلدين قلائد الشهب

كنا وكان الحب ينصبنا مَلِكين تاج السعد يعصبنا

لا شيء يحزننا ويغضبنا والكل يخدمنا ويرهبنا

وسريرنا عال على السحب

ولا شك في أن هذا التنويع في إيقاعات القافية الموسيقية – ما بين القافية الموحدة والمربعات والمخمسات ، ليؤكد نزعة مطران التجديدية ، ويزيد في موسيقى شعر (حكاية عاشقين) ويمنحه جمالا فوق جمال .

هذا ومما تجدر الإشارة إليه أن القافية " لا ينبغي أن يؤتى بها لتتمة البيت ، بل يكون معنى البيت مبنيا عليها ، ولا يمكن الاستغناء عنها فيه ، وتكون كذلك نهاية طبيعية للبيت بحيث لا يسد غيرها مسدها في كلمات البيت قبلها ". (١)

ومن ثم فإن القافية يعيبها أن تكون قلقة في مكانها لعدم إفادتها معنى جديداً بسبب مرادفتها لكلمة سبقتها(٢)، وفى شعر (حكاية عاشقين) بدا هذا العيب عند (مطران) في قافية بعض الأبيات ، ومن ذلك قوله في قصيدة (تذكار) : ــ بحر الطويل ــ

على أنني أغضي وحسبي سماحة وحسب المداجي ذلة وصغارا (٣)

فكلمة القافية (صغارا) لم تفد معنى جديداً بعد كلمة (ذلة) التي تحمل نفس المعنى .

---

(١) النقد الأدبي الحديث ، د/ محمد غنيمي هلال ، ص٤٤٢ ، ٤٤٣ .

(٢) ينظر : أسس النقد الأدبي ، د/ أحمد أحمد بدوى ، ص٣٥٠.

(٣) ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٩٧.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ومن ذلك – أيضا– قوله في قصيدة (القَسَم) : ــ بحر الكامل ــ

كذب الوشاة بما ادعوه وإنني أوفى الأنام بذمتي و عهودي [١]

فالعهد والذمة مترادفتان ، ومن ثم لم تفد كلمة القافية (عهــودي) جديدا بعد كلمة (ذمتي) .

ومن ذلك أيضا قوله في قصيدته (عتاب الشاعر والطائر): ــ بحر البسيط ــ

رأت غرامي فعاهدتني على الهوى الطاهر المباحِ
ثم جفتني وباعدتني بغير إثــم ولا جنــاحِ [٢]

فكلمة القافية (جناح) تعني الإثم عموما ، ومن ثم لم تفد جديدا بعد كلمة (إثم) .

ومن ذلك أيضا قوله في القصيدة ذاتها :

لو أن حبي فيه بقربي لتم حقا ليَ الصفاءْ
لكنه غائب وقلبــي باك من الهجر والجفاءْ [٣]

فــ (الهجر) و(الجفاء) يدور معناهما حول البعد وترك الوصال ، ومن ثم فإن هذه الكلمات وما شابهها تبدو مجتلبة من أجل القافية ، إذ لــم تفد جديدا بعد ما أدى معناها ، وعلى الرغم من ذلك فإن هذا العيب لا يقدح أبداً في شاعرية (مطران) ، فربما كان غرضه من مجيء كلمات القافية بعد ما أفاد معناها هو تقوية المعنى وتوكيده .

---

(١) ذاته ، ص ٢٠٠ .
(٢) ذاته ، ص ٢٠٣ .
(٣) ذاته ، ص ٢٠٥ .

خاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وأشرف المخلوقات ، سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وأصحابه ومن والاه .

وبعد هذه الرحلة الفنية الماتعة في دروب (حكاية عاشقين) للشاعر الكبير خليل مطران ، نخلص إلى ما يلي :

١ــ مجموعة (حكاية عاشقين) الشعرية ما هي إلا زفرات وجدانية تغنى فيها خليل مطران بهذه التجربة العاطفية في تجارب فنية مستقلة عن بعضها ، وإن أوردها في ديوانه مرتبة زمنيا على نحو جعل عرضها يشبه القصة ، ومن ثم أطلق عليها (حكاية) ؛ لغلبة الطابع الوجداني عليها ، وافتقارها كمال المقومات الفنية للقصة الشعرية ، وقد أومأ مطران ذاته في تقديمه لحكايته بما يفيد أنه نظم قصائدها ومقطوعاتها ونتفها متفرقة ومتباعدة حسب مواقف وأحوال العاشقين ، وأنه ما جمع تلك الزفرات الوجدانية والإشارات الشعرية إلا ليفهمها المتلقي غير مبعثرة بين متفرقات لا صلة لها بها [١] .

٢ــ أوضحت الدراسة أيضا أن خليل مطران استطاع أن يعزف على قيثارته الفنية أعذب ألحان الوجدان الذاتي من خلال المكونات الشعرية لـ (حكاية عاشقين) ، التي تمثل ــ كما رآها النقاد ــ مراحل تجربته العاطفية، حيث صور لقاء العاشقين ، ورسم جمال المحبوبة ، وشكا صد الحبيبة ،

---

(١) ينظر : ديوان الخليل ، ج١ ، ص ١٨٤ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وعانى من الوشاة ، وكابد حرقة الفراق ، ثم عاش وفيا للمحبوبة بعد وفاتها، مسليا نفسه باجترار ذكرياتها وشجوها .

٣ــ كشفت الدراسة أيضا عن نجاح مطران في توظيف كل طاقات اللغة وإمكاناتها من خلال موهبته الشعرية ؛ لتجسيد تلك التجربة الوجدانية بكل قسماتها ، وأنه عبر عن عاطفته فيها أصدق تعبير ، وصور فيها مشاعره أوضح وأروع تصوير .

وبعد

فهذا جهدي ــ جهد المقل ــ لا أدعي فيه الكمال أو مقاربته ؛ فهو عمل بشري له وعليه ، وما كان فيه من توفيق فمن الله ﷻ ، وما كان من زلل فحسبي أنني أفرغت الجهد ، والله من وراء القصد ، أسأله سبحانه التوفيق والسداد ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

مصادر البحث ومراجعه

القرآن الكريم

- اتجاهات وآراء في النقد الحديث – د/ محمد نايل – مطبعة العاصمة – القاهرة – دون تاريخ.
- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ـ د/ عبدالقادر القط ـ مكتبة الشباب القاهرة ١٩٨٨م.
- الأدب العربي الحديث ، الرؤية والتشكيل ـ د / حسين علي محمد ، الطبعة السابعة ٢٠٠٧م ـ ١٤٢٨هـ ـ مكتبة الرشد ـ الرياض.
- أساليب البيان والصورة القرآنية ، دراسة تحليلية لعلم البيان ، د/ محمد إبراهيم شادي – الطبعة الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م – دار والى الإسلامية – المنصورة.
- أسس النقد الأدبي عند العرب ـ د/ أحمد أحمد بدوي ـ طبعة دار نهضة مصر ١٩٧٩م .
- الأسلوب ـ أحمد الشايب ـ الطبعة السابعة ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م ـ مكتبة النهضة المصرية .
- أضواء على الأدب الحديث – د/ أحمد الحوفي – الطبعة الأولى ١٩٨١م – دار المعارف – القاهرة.
- تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن العشرين إلى أوائل الحرب الكبرى الثانية ـ د/ أحمد هيكل ـ الطبعة الرابعة ١٩٨٣م ـ دار المعارف ـ مصر .
- تطور القصيدة الغنائية في الشعر العربي الحديث من (١٨٨١-١٩٣٨م) – د/حسن أحمد الكبير – طبعة دار الفكر العربي ١٣٩٨هـ –١٩٧٨م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ـ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، السيد أحمد الهاشمي ـ تحقيق : يوسف الصميلي ، المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م .
ـ حياة مطران ، طاهر أحمد الطناحى –المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة – القاهرة – دون تاريخ.
ـ خليل مطران باكورة التجديد في الشعر العربي الحديث – د/ ميشال جحا – الطبعة الأولى – ١٤٠١هـ –١٩٨١م– دار المسيرة – بيروت – لبنان
ـ خليل مطران شاعر الأقطار العربية ، د/ جمال الدين الرمادي – الطبعة الثانية ١٩٧٢م – دار المعارف – مصر.
ـ خليل مطران شاعر الذات والوجدان – د/ أحمد درويش – الطبعة الأولى شوال ١٤٢١– يناير ٢٠٠١م – الدار المصرية اللبنانية.
ـ خليل مطران شاعر القطرين – د/ منير عشقوتي –سلسلة شعراء لبنان ، رقم(٢) ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، دار المشرق ، بيروت – لبنان.
ـ خليل مطران – محمد عطا – سلسلة نوابغ الفكر العربي –رقم ٢٥– الطبعة الثانية ١٩٦٩م ، دار المعارف – مصر.
ـ دراسات في النص الشعرى ، د/ عبده بدوى ، الطبعة الثانية ١٩٨٤م – دار الرفاعي – الرياض .
ـ دراسات لغوية صوتية بلاغية ، د/ عبد الجواد محمد طبق ، الطبعة الثانية ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
ـ دلائل الإعجاز ـ للإمام عبد القاهر الجرجاني ـ تعليق/ محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدني ـ نشر مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٩٨٤م .
ـ ديوان الخليل – نظم خليل مطران – الطبعة الثانية ١٩٤٩ م ـ مطبعة دار الهلال – مصر .

ـ شعراء معاصرون – د/ إسماعيل أحمد أدهم – المؤلفات الكاملة – الجزء الثاني – تحرير وتقديم د/ أحمد إبراهيم الهوارى – دار المعارف – القاهرة ١٩٨٤م.

ـ الشعراء وإنشاد الشعر ، د/ على الجندي ، ط دار المعارف – مصر ١٩٩٩م.

ـ الشعر بين الجمود والتطور ـ أ/ العوضي الوكيل ـ سلسلة المكتبة الثقافية ـ رقم ١١٤ ـ مطابع دار القلم ـ القاهرة ـ أول أغسطس ١٩٦٤م.

ـ شعر الحنين بين البارودي وشوقي ، د/ عبد الكريم فراج ، مطبعة الأمانة ، ١٤١٧هـ –١٩٩٦م.

ـ صحيح مسلم بشرح النووي ـ المطبعة المصرية ومكتبتها ـ ربيع الثاني ١٣٤٩هـ .

ـ الصورة الشعرية ـ تأليف/ سيي ـ دي لويس ، مطبعة وزارة الثقافة والإعلام العراقية ١٩٨٢م .

ـ الغزل في العصر الجاهلي ـ د/ أحمد محمد الحوفي ـ الطبعة الثالثة ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٣م ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ الفجالة ـ القاهرة .

ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، للحافظ ابن حجر العسقلاني ـ المطبعة السلفية ومكتبتها ـ د . ت .

ـ فصول في الشعر ونقده ، د/ شوقي ضيف ، الطبعة الثانية ١٩٧٧م – دار المعارف – مصر.

ـ فن الشعر في مجلة المقتطف خلال صدورها من سنة ١٨٧٦م إلى سنة ١٩٥٢م دراسة موضوعية وفنية ـ رسالة دكتوراه للباحث / محمد الصاوي محمد الصاوي ـ مخطوطة بكلية اللغة العربية بالزقازيق ـ جامعة الأزهر ١٤٣١ه ـ ٢٠١٠ م .

ـ فن الغزل في الشعر المملوكي دراسة تحليلية نقدية ـ د/ حسن عبدالرحمن سليم ، الطبعة الأولى (١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٧م) ـ مكتبة الآداب ـ القاهرة.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ـ فن الموسيقى في الشعر العربي ، د/ محمود على السمان ـــــ طبعة سنة ١٩٧٨م.
ـ في محيط النقد الأدبي ـ د/ إبراهيم على أبو الخشب ـ مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م .
ـ في ميزان النقد الأدبي ـ د/ طه مصطفى أبو كريشة ـ مطبعة المليجي ـ الجيزة ـ القاهرة ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م .
ـ في النقد الأدبي ، د/ شوقي ضيف – الطبعة الخامسة – ١٩٧٧م – دار المعارف – مصر .
ـ لسان العرب – ابن منظور – تحقيق : عبد الله علي الكبير ـ محمد أحمد حسب الله ـ هاشم محمد شاذلي ـ سيد رمضان أحمد ـ طبعة : دار المعارف – مصر د.ت .
ـ مباحث في طرق علم البيان، د/ رفعت إسماعيل السوداني ٢٠٠٠ –٢٠٠١ م .
ـ مقدمة ابن خلدون ـ تحقيق د. علي عبد الواحد وافي ـ دار نهضة مصر ـ الطبعة السابعة ٢٠١٤ م .
ـ محمد هاشم رشيد ، أضواء على شعره وشاعريته ، د/ رزق محمد سيد أحمد داود ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م – مطبعة الأمانة – القاهرة.
ـ معجم مصطلحات الأدب ، مجدى وهبة ـ مكتبة لبنان – بيروت ١٩٧٤م.
ـ مهرجان خليل مطران – المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية – مطابع دار القلم – القاهرة – يونيه (حزيران) ١٩٦٠م.
ـ موسيقى الشعر ، د/ إبراهيم أنيس ، الطبعة الخامسة ١٩٨١م .
ـ النقد الأدبي الحديث ـ أصوله واتجاهاته ـ د/ أحمد كمال زكى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م .
ـ النقد الأدبي الحديث ـ د/ محمد غنيمي هلال ـ مطبعة نهضة مصر ـ القاهرة ـ الطبعة السادسة ٢٠٠٥ م .

فهرس الموضوعات

م	الموضـــوع	الصفحة
١.	ملخص	٥٩
٢.	Abstract	٦٠
٣.	مقدمة	٦١
٤.	تمهيد : الوجدان وروافده في شعر خليل مطران	٦٤
٥.	المبحث الأول : الأبعاد الفكرية في (حكاية عاشقين)	٧٠
٦.	الفصل الأول : سعادة الحب	٧٣
٧.	الفصل الثاني : شقاء الحب	٩٧
٨.	المبحث الثاني : الأبعاد الفنية في (حكاية عاشقين)	١٠٧
٩.	خاتمة	١٦٧
١٠.	مصادر البحث ومراجعه	١٦٩
١١.	فهرس الموضوعات	١٧٣